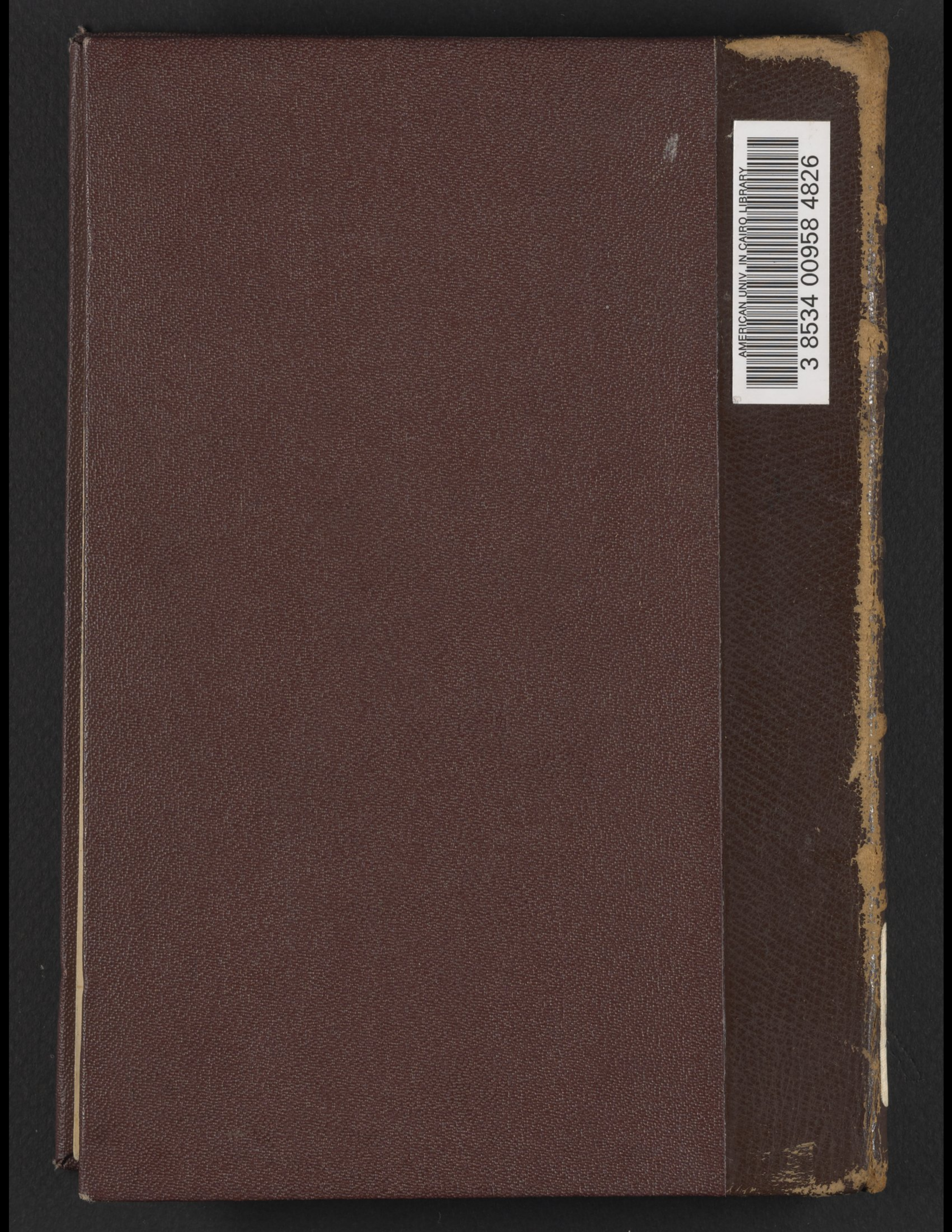
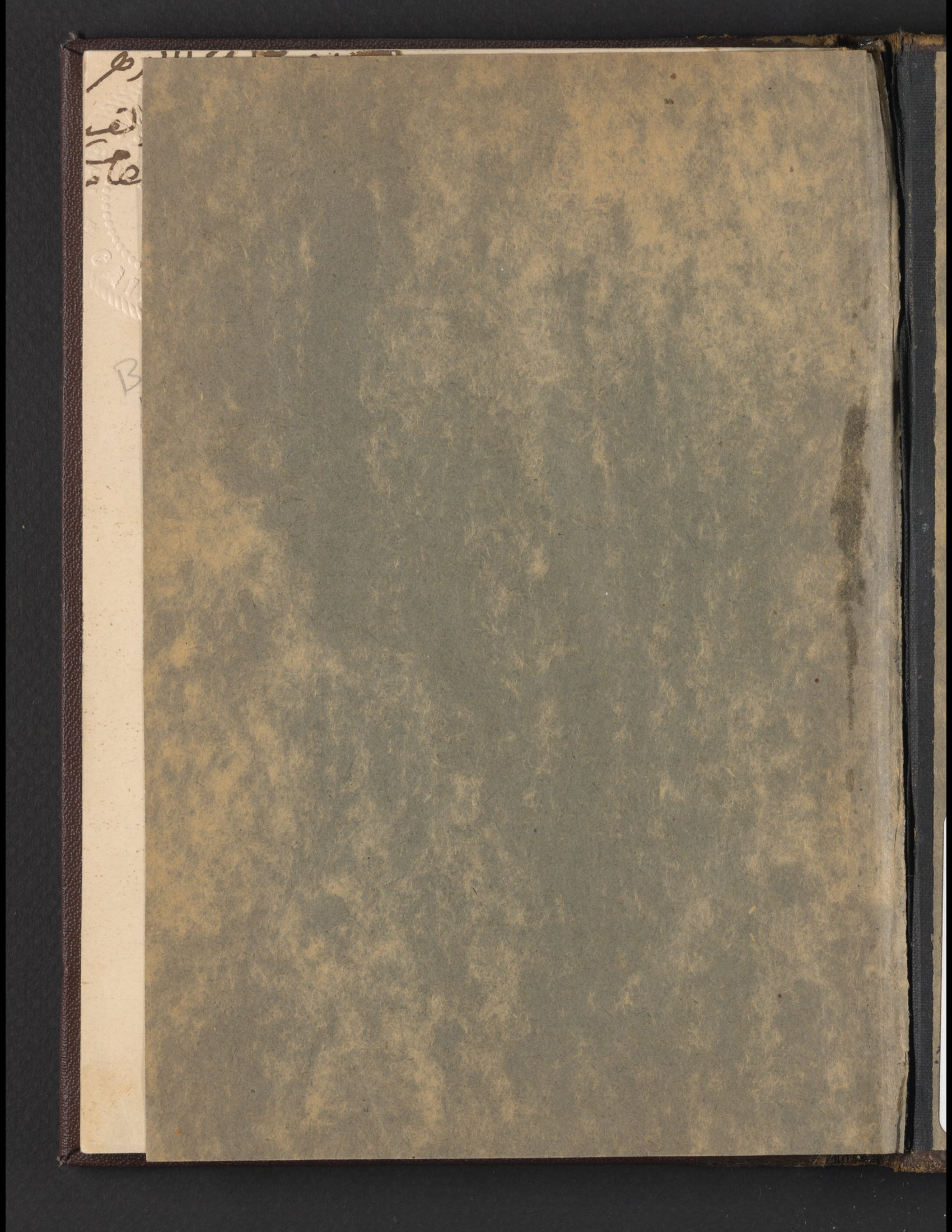
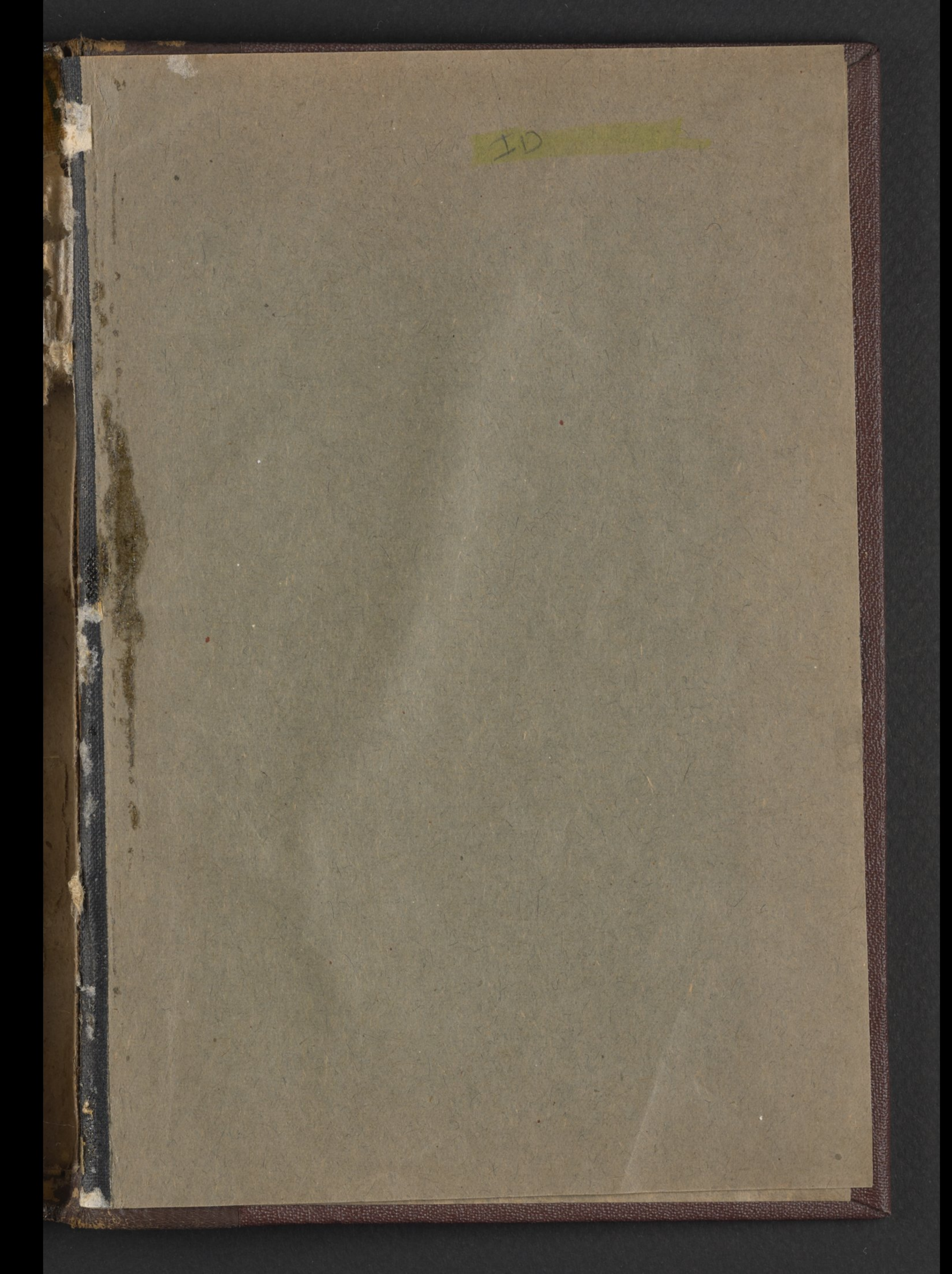
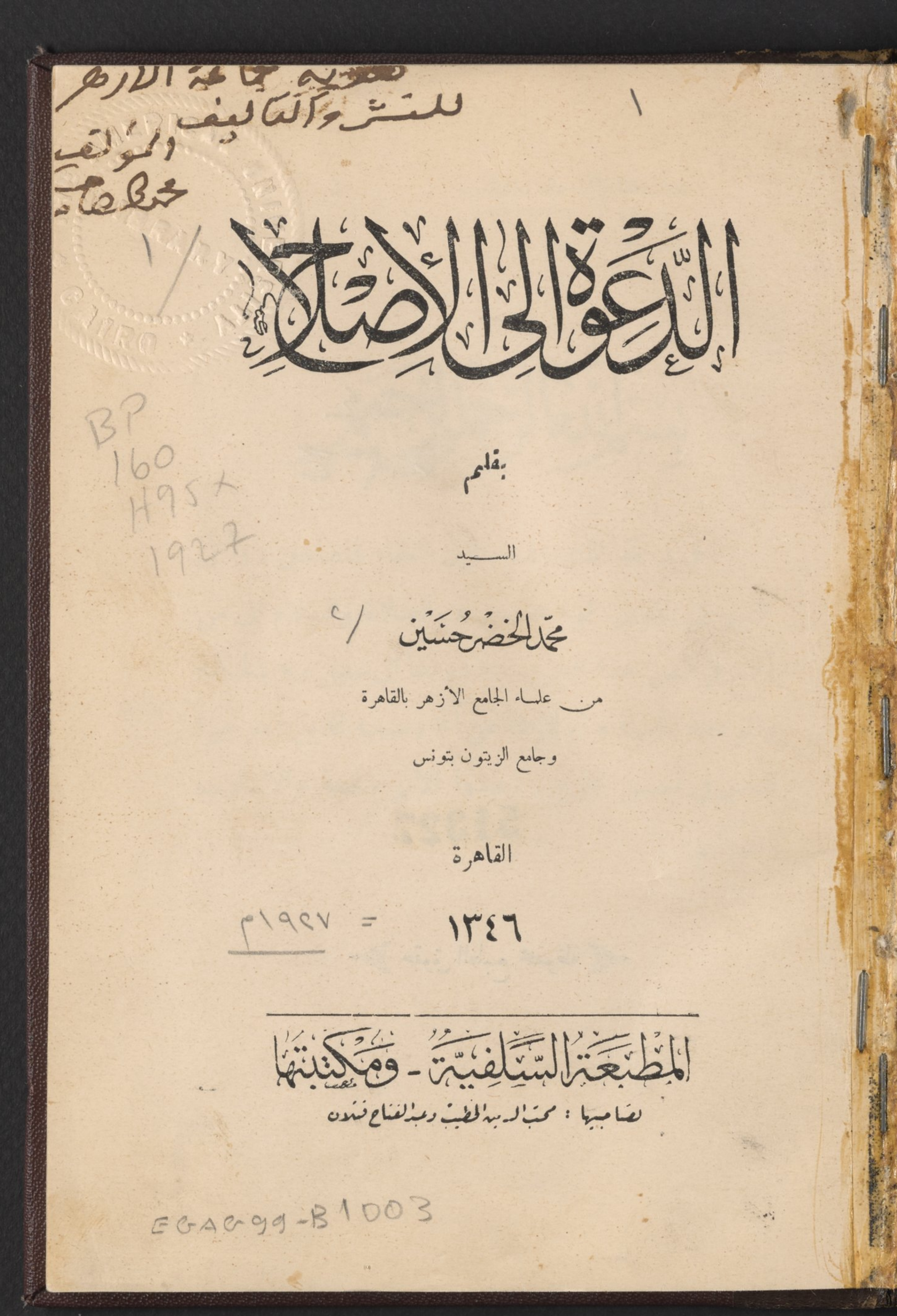

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00958 4826









الدعوة إلى الإصلاح

بقلم

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الجامع الأزهر بالقاهرة

وجامع الزيتون بتونس

القاهرة

١٣٤٦ = ١٩٢٧م

المطبعة السلفية - ومكتبتها

لصاحبيها: محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي رفع منازل العلماء المصلحين ، وأعلى كلمتهم في نفوس قوم مخلصين * والصلاة والسلام على من أبلغ فرائض هذا الدين وسننه ، ودعا الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة * ثم الرضا عن آله وصحبه الذين أُخرجوا للناس في أحسن تقويم ، وهدوا الامم بالحجة والاسلوب الحكيم

مقدّمة

يبحث الكتّاب عن العلل التى لبست الامم الاسلامية وقعدت بها في خمول، حتى ضربت عليها الدول الغربية بهذه السلطة الغاشمة؛ ويوردون في نتيجة بحثهم أسبابا شتى. وأنت اذا تدبرت هذه الاسباب وجدت السبب الحق منها يرجع الى تهاون هذه الامم بتعاليم الشريعة، ونكث أيديهم من المشروعات التي عهدت اليهم بالقيام عليها. والعلة فى ضعف هممهم وقلة إقبالهم على ما أرشد اليه القرآن - من وجوه الاصلاح ووسائل المنعة والعزّة - انما هي تقصيرهم في التواصي بالحق، وعدم استقامة زعمائهم على طريقة الدعوة والارشاد

هذا ما استثار الهمة، وأخذ برأس القلم يجرّه الى البحث فى مشروع **الدعوة الى الاصلاح** لعله يبسط من حقائقه وآدابه جملا كافية، ويملك بتأييد الله زمامه

الفصل الأول

الحاجة الى الدعوة

في فطرة الانسان قوّة يعقل بها طرق الصلاح والفساد، ويفقه بها الحق والباطل. ولكن هذه القوة العاقلة لاتستقل وحدها بتمييز المعروف من المنكر، وليس من شأنها أن تطلع على كل حقيقة، ولا أن تدبر أعمال البشر على نظام لاعوج فيه؛ فانها - وان بلغت في الادراك أشُدَّها - قد تنبو عن الحق، ويعزب عنها وجه المصلحة، ولا تهتدي الى عاقبة العمل؛ وربما ألقت على الحسنة نظرة عجلى فتحسبها سيئة، وقد يتراءى لها الشر في شبهٍ من الخير فتتلقاه بالقبول

وقد تصدَّى رجال من أصحاب هذه القوى العاقلة للبحث في نشأة الخليقة، فكانت عاقبة بحثهم أن خرّوا للاحجار أو الكواكب أو الحيوان سُجّدا. وتصدّى آخرون لانشاء نُظم اجتماعية، فوضعوا مايذهب بالجماعة

في غير طريق ، ويكبو بها في خسار ؛ وأمثلة هؤلاء مشهودة حديثا ، ومضروبة في كتب التاريخ قديما . وليس القانون الذي يسيغ المقاتلة الشخصية (المبارزة) إلا صنع نفس عريقة في الهمجية ، وليس القانون الذي يساعد الفتيات على إراقة ماء الحياء والعزة من وجوههن والزهد في صيانة أعراضهن إلا وليد عقل غمرته الغباوة أو حفت به الشهوات من كل ناحية. وأراد ذو عقل كبير - وهو الحجاج بن يوسف - معاقبة شخص على جريمة ارتكبها بعض ذوي قرابته ، فدافعه بقوله تعالى « ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى » ، فما كان إلا أن استمع للآية وارعوى!

واذا وقف صاحب القوة العاقلة على وجه الخير أو الشر فقد يساوره الغضب ، أو تسيطر عليه اللذة ، فيترك الصالح أو يأتي المنكر ؛ ولا يبالي بما يوقعه فيه التهاون بالصالحات أو ارتكاب المنكرات من شقاء بعيد

وقد تخلص النفوس من تخبط الغضب أو أسر الشهوات ثم لا يستطيع أصحابها البقاء دون أن ينشب بينهم نزاع ، فان

المدارك تتفاوت إما بحسب فطرتها واما بالنظر الى استعدادها المكتسب من التجارب ، فترى الرجل يستحسن عين مايستقبحه غيره ، بل النفس الواحدة قد يبدو لها الامر حسنا في حال ، فان لم يوافق غرضها في وقت آخر انقلب في رأيها شيئا نكراً . وكثيراً ما يشتمل الامر في الواقع على وجهيْ الاثم والمنفعة ، فيريد بعضهم جلب منفعته فيسعى في تقريره ، ويرغب آخر في درء مفسدته فيلوي عنه صفحاً . وربما يشاهد الانسان الحادثة تنزل بغيره فيقضي عليها برأي ، ولو عرضت له فى نفسه وأدرك مقدار تأثيرها لعاد الى الحكم عليها بأشدّ مما قضى به أولا أو أدنى

ولما كانت الانظار تقصر ، والاهواء تتغلب ، والعقول تتفاوت وتختلف ؛ اشتدَّت حاجة الناس الى مصلح الهيّ يطلق نفوسهم من قيود الاوهام ، ويهديهم السبيل الى مافيه خير ، وينذرهم عاقبة الانهماك في اللذائذ ، ويعلمهم كيف يتحامون الفتنة اذا اختلفوا

هذا وجه من حكمة بعثة الانبياء عليهم السلام ،

وصعودهم بالناس الى مراقي السعادة ، واقامتهم القضاء على أسس عادلة

فبهذه الدعوة الالهية لبست النفوس أدباً ضافياً ، وأخذ الاجتماع سُنة منتظمة ، وبصرت العقول بحقائق كانت غامضة

واذا كان للشرائع السماوية مزية تقويم النفوس ، وانارة البصائر ، وفتح طرق الحكمة ؛ فان نصيب الاسلام من هذه المزية أوفر وأجلى

وما برح الناس – بعد انطواء عهد النبوة – في حاجة الى من يعلمهم اذا جهلوا ، ويذكرهم اذا نسوا ، ويجادلهم اذا ضلوا ، ويكفّ بأسهم اذا أضلوا . واذا سهل عليك أن تعلّم الجاهل وتذكّر الناسي فان جدال الضالّ وكفّ بأس المضلّ لا يستطيعهما الا ذو بصيرة وحكمة وبيان

وما برحت العصور تلد من الضالين المعاندين ، والمضلين المخادعين ، من يحاولون إثارة الفتن ، واطلاق النفوس من قيد الأدب والعفاف ؛ وفى كل عصر لا يفقد هؤلاء أولى عزم واخلاص يقرعونهم بالحجة ، ويهتكون الستار عن مكايدهم ؛

فيزهق باطلهم ، وترهق وجوههم قترةُ الخيبة والخذلان

ولا تنس أن المضلين المخادعين فى هذا العصر قد تهيأ لهم من وسائل الدعاية مالم يتهيأ لاخوانهم الغابرين : فمن نوادٍ تفتح ، وصحف تنشر ، وجمعيات تعقد ، وأموال تنفق ، وجاه يبذل ، وسلطات تمالىء وتستبد ؛ وهذا ما يجعل الدعوة الرشيدة من أفضل الواجبات وأحمد المساعى ، وهذا ما يقضي على حكماء الامة بأن يعدّوا للدعوة ما استطاعوا من قوة ، ويكسروا شوكة هذه النفوس المحشوّة بالغواية والشهوات ، قبل أن تبلغ أمنيتها. وهناك طائفة لم تفسق عن جحود وتمرّد ، وانما أُتيت من قِبل الجهل وعدم صفاء البصيرة ، فوضعت بجانب حقائق الاسلام ما يتبرأ منه الاسلام؛ ومن أيدي هؤلاء نزلت البدع ، ومن ألسنتهم هبطت المزاعم والخرافات ، ومن آرائهم دخل في الكتاب والسنة ضرب من سوء التأويل . وحاجتنا الى تقويم أصحاب هذه البدع تضاهي حاجتنا الى انقاذ النفوس الزاكية من أن تقع في حبائل اولئك الذين يضلون عن سبيل الحياة الطيبة ويبغونها عوجا

الفصل الثانى

الدعوة فى نظر الاسلام

للدعوة الاثر الكبير في فلاح الامم وتسابقها في مضمار الحياة الزاهرة ، وهذا مايجعلها بالمكانة السامية في نظر الشارع الحكيم ، وقد ألقى عليها الاسلام عناية شديدة فعهد الى الامة بأن تقوم طائفةٌ منها على الدعاء الى الخير ، وإسداء النصيحة للافراد والجماعات . قال تعالى « ولْتكن منكم أمةٌ يَدعون الى الخير ويأْمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون »

فالآية ناطقة بان الدعاء الى الخير ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فريضة ملقاة على رقاب الامة ، لاتخلص من عهدتها حتى تؤديها طائفة على النحو الذي هو أبلغ أثراً في استجابة الدعوة وامتثال الاوامر واجتناب النواهي . والدعوة الى الخير – كسائر فروض الكفاية – يوجه خطابها الى الامة بقصد إفهامهم وإعلامهم . ومناط التكليف

والالزام إنما هو طائفة يتفق أهل الحل والعقد على تعيينها ، أو تتقدم اليه من تلقاء نفسها

واذا قلنا ان الخطاب بفرض الكفاية والاعلام به يتوجهان الى الامة ، فانما نريد من الامة القادرين على القيام به خاصة ، وهؤلاء هم الذين تحقُّ عليهم كلمة العذاب حيث لا تنهض به طائفة منهم ، فلا جُناح على من لا يستطيع الدعاء الى خير أو الدفاع عن حق اذا سكت المستطيعون اليه سبيلا . ولو ضلَّ قوم عن سبيل الخير أو جهلوا معروفاً أو ركبوا منكرا ، وقامت طائفة تدعوهم أو تأمرهم أو تنهاهم بأسلوب ليس من شأنه التأثير على أمثالهم ، لبقيت هذه الفريضة ملزمة في أعناق الذين يستطيعون أن ينفذوا بألمعيتهم الى نفوس الطوائف ، ويصوغوا إرشادهم وموعظتهم على الطرز الذي تألفه نفوس الطائفة التي يحاورونها

وليست القدرة على الدعوة في قوتي الحجة والبيان وحدهما ، بل تأخذ معهما كل مايتوقف عليه إقامة الدعوة ، كوسائل نشرها في بيئة نفقت فيها سوق الفسوق أوخفقت

فيها ريح الالحاد ؛ فهذه الفئة الموعز اليها بالدعاية الى غير هدى وغير أدب قد ملكت لنشر باطلها وسائل أهمها الانفاق ؛ واذا وجب على الامة أن تميط أذى هذه الدعاية عن طريقها فخطاب هذا الواجب يتوجه الى الكتّاب والخطباء ، ثم الى كل من له شيء من القدرة على البذل في سبيل الدعوة كفتح نوادٍ لالقاء المحاضرات ، وانشاء صحف أو مساعدة صحف تُظاهر الدعوةَ باخلاص

رَفع كتابُ الله منزلةَ القائمين على خِطة الارشاد ، ومن آياته المحكمات قوله تعالى « كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس تأْمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فالآية تومىء الى أن المخاَطبين بها يفضلون على سائر الامم ، وانما نالوا هذه الافضلية بمزية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والايمان بالله . ومن يطلق النظر فيما يتجشمه الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر من أخطار ، وما يلاقونه من أذى ؛ ثم لا يلوون أعنتّهم الى راحة ، ولا يحملون أنفسهم على مصانعة أو إغضاء ؛ يعرف

أن هنالك بصائر ساطعة ، وعزائم متوقدة ، وهمما ينحط أمامها كل عظيم . أفلا يكون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر خير امة اخرجت للناس ؟

نوّه التنزيل بشأن المصلحين ، ثم أنحى باللعنة على من يؤتون الحكمة ولا يبسطون ألسنتهم ببيانها ، فقال تعالى « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس في الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » . فالآية نزلت في وصف حال فريق من غير المسلمين ؛ ولكن حكمها — وهو استحقاق اللعن — لا يقف عند حدهم ، بل يجري على كل من درس آيات الله أو قبض قبضة من أثر هدايته ، ثم أمسك عن بيانها والناس في جهالة أو حيرة يتخبطون . وكذلك يقول علماء الاصول: إن مقتبس الاحكام من الآيات لا يقتصر على سبب نزولها بل يمشي في تقرير معانيها على قدر مايسعه عموم لفظها

الحقائق التي لا يسوغ كتمانها هى ماينبني على العلم

به أثر فى صحة اعتقاد، أو أدب نفس، أو استقامة عمل، فان كانت من قبيل ماهو من مُلح العلم فلا حرج عليه فى احتكارها والسكوت عن بيانها. حكى الشيخ ابن عرفة في درس تفسيره أنه دخل على شيخه ابن الحباب وجعل ينظر في كتبه، فمنعه من استيفاء النظر فيها وقال له: للشيخ أن يمتاز عن طلبته بزيادات لا يخبرهم بها

وعمد بعض الناس لعهد الصديق رضي الله عنه الى قوله تعالى «عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم» فتأوله على غير صواب، فقام الصديق خطيباً وقال: انكم تقرأون هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم» وتضعونها في غير موضعها، وانني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الناس اذا رأوا المنكر ولم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب»

ولم ينقطع أثر ذلك التأويل الخاطيء، فظلّ في أوهام بعض العامة الى هذا العهد، حتى اذا أمرتَ أحد هؤلاء بمعروف أو نهيته عن منكر ألقى عليك الآية كالمستشهد بها

على أنك تخطيت حدّك ، ورميت بكلامك في فضول .
ومنهم من يتلوها على قصد الاعتذار وتبرئة جانبه من اللائمة
متى شهد منكراً ولم يغيره بيده أو لسانه أو قلبه الذي من
أمارات تغييره البعد عن مكان الواقعة المنكرة

ومعنى الآية الذي تطابق به غيرها من الآيات
الآمرة بالدعوة : انكم اذا استقمتم كما أُمرتم ، وقضيتم
الواجبات التى من جملتها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر؛
فلا يضرّكم من اشتدّ به هواه ، وتطوّح به في واد من
الغواية

ولا تقدّر الدعوة الواجبة بعدد ، أو تضبط بقدر من
الزمن اذا قضاه الداعي برىء من عهدتها ، وانما يُرجع في
إبلاغها واستئنافها مرة بعد أخرى الى اجتهاد الداعي ورجائه
تأثيرَها وأخذها في نفوس المدعوّين مأخذ القبول

واذا دعا العالم طائفةً الى اصلاح شأن من شئونهم ،
فعتوا عن أمره واستكبروا عن اجابته ، حتى أيس من اقبالهم
على نصيحته واستيقن عدم الفائدة من تذكيرهم ، خلصت

ذمته ، ولا جناح عليه أن يقف عند هـذه الغاية . وحمل بعض المفسرين مفهوم الشرط في قوله تعالى « فذكّر ان نفعت الذكرىٰ » على مثل هذا الحال ، وبيان هذا التأويل انك اذا قمت بذكرى قوم على الوجه الاكمل ، ولم ينتفعوا بالذكرى وتمادوا على غوايتهم ، فقد قضيت حق الدعوة ، ولا عليك في أن تصرف عنهم نظرك ، وتدعهم الى أيام الله

ولا يقطع الداعي بعدم نفع الذكرى ، وضياعها كصيحة في فلاة ، الا اذا وجه بخطابها الى قوم معينين مرة بعد أخرى حتى عجم عيدانهم وكان على ثقة مما انطوت عليه نفوسهم من التقليد في الباطل ، وانكار الحقيقة في أي صورة ظهرت

اما مَن دأبه النصيحة العامة — كخطباء المنابر وأرباب الصحف — فلا يحق لهم ان يهجروا الارشاد وإن شهدوا قلة تأثيره في قوم بأعيانهم ، فما يُدريهم أن تصادف نفوساً مستعدة للخير فتقودها الى سـواء السبيل . قال تعالى « وذكّر فانَّ الذِكرىٰ تنفعُ المؤمنين » . وما سطع الايمان في

نفس الا كانت كالبلد الطيب يُخرج نباته بأذن ربه ، فابذر فيها من الحكمة والموعظة ماشئتَ أن تبذر ، فلا تريك الا نيات صالحة وأعمالا راضية

وكثيراً مايستخفّ الناس بالامر تلقى له الخطبة أو تؤلف فيه المقالة ، فاذا تتابع الترغيب فيه أو التحذير منه ولو من المرشد الواحد أخذوا يعنون بشأنه ويتداعون الى العمل به أو الاقلاع عنه

الفصل الثالث

المبادرة الى الدعوة

الدعوة نوعان : دعوة يُقصد بها إنقاذ الناس من ضلالة أو شرٍ واقع ، ودعوة يُقصد بها تحذيرهم من أمر يخشى عليهم الوقوع في بأسه . أما الاولى فيتحتم القيام بها لاول وقت ممكن ، ويلوّح الى هذا الواجب قوله تعالى « وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين » .

فقوله « من أقصى المدينة » إظهار لعناية هذا الداعي وشدة رغبته في الاصلاح حيث لم يثبطه بُعد المسافة عن السعي اليه والوفاء بحقه . وقوله « يسعى » تذكرة لدعاة الاصلاح وايقاظ لهممهم كي ينفقوا في هذه الغاية وسعهم ويسارعوا الى النصيحة جهدهم ، لان السعي فى لسان العرب بمعنى العدْو والمشي بسرعة

وأما النوع الثاني من الدعوة فان كان مما ينشأ عن تأخيره حرج التحق بالامر الواقع ووجبت المبادرة الى الدعوة حسب الطاقة ، وان كان بينك وبين وقوعه فسحة جاز ارجاؤها الى زمن الحاجة . وما يقوله بعض أهل العلم من جواز السكوت عن العلم الى أن يُسأل عنه إنما يحمل على هذا النوع الذي لم يدعُ الحال الى معرفته في الوقت الحاضر ، حكى القاضي عياض في كتاب (المدارك) ان سحنون وصاحبيه عون بن يوسف وابن رشيد دخلوا على أسد بن الفرات ، فسألهم عن مسألة ، فابتدر لجوابه صاحبا سحنون وسكت سحنون ، فلما خرجوا قال له صاحباه :

لمَ لم تتكلم ؟ فقال سحنون : ظهر لي ان جوابكما خطأ ، وبين لهما ذلك ، فقالا له : لمَ لم تتكلم بهذا ونحن عنده ؟ فقال : خشيت أن ندخل عليه ونحن اصدقاء ونخرج ونحن أعداء . قال القاضي عياض : وسكت سحنون حين علم أن القضية لا يفوت أمرها ، ولو علم ذلك لبادر بما ظهر له

الفصل الرابع

التعاضد على الدعوة

ذكر بعض أهل العلم أن قيام الواحد بفريضة الدعوة كافٍ ، واستشهدوا بقوله تعالى « فلولا نَفَرَ من كلّ فِرْقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقَّهوا في الدين وليُنْذِروا قومَهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . وقالوا في وجه الاستشهاد : إن الطائفة في لسان العرب الواحد فما فوقه . وهذا القول مستقيم بالنظر الى ابلاغ الامر والنهي ، ووضع الحق بين أيدي الغافلين عنه . أما من حيث فعل الدعوة في النفوس

ودخولها مدخل الاقناع فمن البيّن بنفسه أن للدعوة التي تقوم بها الجماعة أثراً لا تبلغه دعوة الفرد ، وربما كان النظر فى هذا يرجع الى حال المدعوين أو حال ماتتعلق به الدعوة أو ما يقصد من الدعوة

أما النظر الى حال المدعوين فقد يغنى العدد القليل في دعوة جماعة تتقارب مشاربهم وتتشابه احوالهم النفسية ، أما اذا اختلفت مشاربهم وتعددّت نزعاتهم فلكثرة القائمين بالدعوة وتظاهرهم عليها وقعٌ في نفوسهم واخذٌ لها من بين تلك النزعات المتباينة والمسالك المتشعبة ، فان الدعاة اذا تعدَّدوا اختلفت أساليبهم في الدعوة غالبا ، وقد يبدو للداعي من وجوه تحسين الامر أو التنفير منه مالا يخطر على بال آخر وان كان أغزر علماً وأوسع نظراً ، وقد تخضع النفس لاسلوب دون أسلوب ؛ وتهتدي بطرز من الجدل أو الموعظة أكثر مما تهتدي بغيره ولو كان أقرب دلالة بحكم المنطق وأوضح إنتاجا

وأما حال ماتتعلق به الدعوة فان الارشاد الى أحكام

الدين العملية — مثلا — أيسر من اصلاح العقائد ووضع الايمان موضع الجحود بالله ، فداعي المطمئنين بالايمان الى مثل الاحكام العملية إنما يتلو قرءانا أو حديثا أو نصوص من يُقتدَى باجتهادهم ، والداعي الى الايمان يقصد الى نقل النفوس من ملة الى ملة ، وتحويلُ النفوس من عقيدة الى أخرى يبلغ من الصعوبة أن يحتاج دعاته الى من يشد أزرهم في إبلاغ الحجة أو مطاردة الشبهة ، وكذلك سأل موسى عليه السلام ربه أن يجعل أخاه هارون شريكا له فى الرسالة فقال « واجعلْ لي وزيراً من أهلي هارونَ أخي أشدُدْ به أزْري وأُشركْه فى أمري » وبعث عيسى عليه السلام الى أهل انطاكية برجلين اثنين ليدعواهم الى الايمان فقابلوهما بعناد وتكذيب ، فأضاف اليهما ثالثاً يؤيد بعثتهما ، قال تعالى واضربْ لهم مثلاً أصحابَ القريةِ إذ جاءها المرسلون ، اذ أرسلنا إليهم اثنين فكذَّبوهما فعزَّزنا بثالث فقالوا إنا اليكم مرسلون »

واما حال ما يقصد من الدعوة فانك ترى رجالا انحرفت عن ادب الاسلام قلوبهم ، وساعدتهم الايام على أن

أصبحوا يسيطرون على بعض شعوبه، ويفسدون عليهم دنياهم وآخرتهم، فيعتدون على أحكام دينهم، ويناصرون الاشخاص الذين يملأون أفواههم بالجهل على رسوله الاكرم. فاذا كان أولئك المنحرفون عن أدب الاسلام ممن لا يُقبلون على الحق بعين باصرة، أو لا ينقادون الى الحقائق المبصرة، فمن المحتمل ألا يراد من دعوتهم اصلاح نفوسهم وانما يراد منها صرفهم عن هذه السيرة الخرقاء واراءتهم أن الامة التي تتقلد الاسلام شريعة لا تستطيع أن تبقى أمامَ تعسفهم هذا معقودة الالسنة، أو مقبوضة الايدي. فالذين يرضون عن عبث هذه الارواح غير الطيبة انما يغنى في عودتهم جماعة من زعماء الامة لا يحوم على ألسنتهم ملق، ولا يشترون متاع هذه الحياة بكتمان ما أوتوا من حكمة، فيوقظونهم من غرورهم، ويُرونهم أن العزّة للمؤمنين. أما صوت الواحد ونحوه فانما يلقى منهم آذان الصم الذين لا يفقهون

وانما تفيد كثرة الدعاة عند اتحادهم وقصدهم الى اقامة المصالح ونصرة الحقيقة في نفسها، وبذلك أوصى النبي ﷺ

أبا موسى ومُعاذَ بن جبل حين بعثهما الى اليمن : قال لهما « يسّرا ولا تعسّرا وبشّرا ولا تنفّرا وتطاوعا » . ويُشعر بهذا الشرط التعبير عن الدعاة باسم « الامة » دون « القوم » فى قوله تعالى « ولْتكنْ منكم أمةٌ يدعون الى الخير » قال القفّال : الامة القوم المجتمعون على الشيء الواحد يقتدي بعضهم ببعض ، مأخوذ من الائتمام . وهو الوجه في ايثار التعبير به أيضا في آية « ومن قوم موسى امةٌ يهدون بالحق وبه يعدِلون » فان لفظ « القوم » يطلق في اللسان على عدد أقلّ مما يطلق عليه لفظ « الامة » وهو من هاته الجهة أنسب بدعاة الاصلاح لقلة عددهم ، ولفظ الامة أليق بسائر الافراد لكثرتهم ؛ ولكنه اختير للدعاة اسم « الامة » لان اشعاره بمعنى اتحادهم وتآلفهم أقوى مما يشعر به لفظ القوم

فالقرآن يرشد الى أن يكون دعاة الاصلاح جماعة ، وان يكون أدب هذه الجماعة الاتحاد والتعاضد . ومن الواجب صرف الهمة الى مشروع الدعوة حتى تقام على نظام يحفظ الحقائق والمصالح ، أما بقاؤها مطروحة الى داعية

الافراد فقد يفضي بها الى ضياع ، وطالما جعلها تفقد حيث يجب أن تكون

الفصل الخامس

من الذى يقوم بالدعوة ؟

أطلق الاسلامُ فى أمر الدعوة ، فأعطى لكل انسان الحقّ في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى أذن لادنى الناس منزلة أن يصعد الى مقام الامير الاعلى ويجاهره بالنصيحة وطلب الاصلاح . وقد كان الفرد من سائر الناس يأمر الولاة في عهد السلف وينهاهم : روى البخاري في جامعه الصحيح عن طارق بن شهاب ، قال : أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان ، فقام اليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة . فقال : قد ترك ماهنالك ، قال ابو سعيد الخدري : اما هذا فقد قضى ماعليه ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطعْ

فبلسانه ، فان لم يستطعْ فبقلبه ، وذلك اضعف الايمان »

وجاء في حديث آخر رُوي في الصحيح أيضا أن أبا سعيد هو الذى جذب بيد مروان - حين رآه يصعد المنبر - فردّ عليه مروان بمثل مارد به على ذلك الرجل . ولعلهما قضيتان كما قال شارحو الحديث : احداهما وقعت لابي سعيد ، والاخرى كانت من الرجل بحضرته

ويضاهي هذا ماروى مسلم في صحيحه عن كعب بن عجرة أنه دخل المسجد وعبد الرحمن بن ام الحكم يخطب قاعداً ، فقال انظروا الى هذا الخبيث يخطب قاعدا ، وقد قال الله تعالى « واذا رأوا تجارة او لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما »

واعتبروا بعد هذا في قوله تعالى « وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر » وقوله تعالى « كانوا لا يتناهون عن مُنكر فعلوه » فالتعبير بصيغة التفاعل في قوله « تواصوا » وقوله « لا يتناهون » يدلُّ على تبادل الوصاية ، والتناوب في النهي عن المنكر . ويشير الى أن الشخص الذي يُوصي آخر

بحق أو ينهاه عن منكر لا يعلو به قدره عن طاعة ذلك الموصَى أو المنهي اذا دعاه الى صالح او الى النزوع عن باطل

ويجري على هذا الباب أن الفقهاء يطلقون للخصوم أن يخاطبوا القاضي بنحو « اتق الله » أو « أذكر الله » ولم يعدّوه من اللمز بقلة التقوى . ولو أجري على مثل هذا حكم الجفاء أو الطعن الذي يستحق به الخصم الادب لاتخذه الحاكم المستبد ذريعة الى كفّ الرعية وسدّ أفواههم عن احضاره النصيحة ، ودعوته الى القيام بصالح الاعمال . يروى أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب فى كلام دار بينهما : « اتَّقِ الله » ، فانكر عليه بعض الحاضرين وقال له : أتقول لامير المؤمنين : اتق الله ! فقال له عمر : دعه فليقلها لي ، نِعْمَ ماقال ؛ لاخير فيكم اذا لم تقولوها ، ولا خير فينا اذا لم نقبلها

انما يعتمد فى شرط المصلح أن يكون على بينة من حكم مايأمر به أو ينهى عنه ، تلك المزية المومأ اليها بقوله تعالى « أدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وقوله

تعالى « أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني »

والناس فى إدراك الحقائق اربع طبقات :

فمنهم من يشعر بوجه الحق فيستولى عليه نظراً وعلماً ، وفي استطاعته أن ينصب عليه الدلائل الصريحة ليهتدي بها المقتدون على أثره. ولا تنبعث أمة من مرقدها ، وتمتطي غارب عزّها الا اذا نبتت فيها نابتة من أهل هاته الطبقة

ومنهم من لم يبلغ في قوة الشعور وسرعة الخاطر أن ينتبه الى جهة الحق من تلقاء نفسه ، ولو ترك بحاله وخُلي سبيله لتمادى في جهالته ، واستمر على غوايته. ولكنه يسمع الكلمة تشير الى موضع الحق ، فيرمى ببصره اليه ، ويأخذ فى نصب الدلائل الموصلة الى معرفته

وبعض الناس لا ينتبه للحق بنفسه ، ولا يتمكن من اقامة الشواهد عليه لو أنبأته بناحيته ، فيفتقر الى أن تأخذ بيده وتقوده بما تلقيه من الادلة حتى يراه رأي العين . الا أنه انطوى على فطرة سليمة ونظر صحيح ، فلا يمكنك بعد أن يفقه الرشد ويستقرّ على علم أن تنتزعه منه وتغرس في

مكانه جهلا أو ضلالا

وفى الناس من يلقي زمامه الى أيدي الدعاة ويتلقى أقوالهم بالطاعة دون ان يكلفهم الدليل على صحة قضية أو الوجه فى بيان حسن عمل، وانما يعتمد في الاقتداء بهم على ما اشتهروا به من نحو العلم والاستقامة و كثرة المريدين من أولى الاحلام الراجحة . وعلامة هذه الطبقة أن يرجع مرشدهم عما بثه من علم أو ندب له من عمل فينقلبوا معه الى تقليد مذهبه الجديد

ولا يختص بواجب الدعوة أهل الطبقة العالية وما يقرب منها، فان من الحق ما يكون واضحاً بنفسه أو بدليل متوافر، بحيث لا يتأتَّى فيه نزاع، ولا يحتاج الامر فيه الى تقرير حجة أو ازالة شبهة : كفريضة الصلاة، وفضيلة العدل والعمل لتخليص الوطن من سيطرة الاجنبي؛ فأمثال هذه الحقوق إنما يهملها مستطيع القيام بها لآفة سهو أو داعية هوي. فيحق لكل مسلم ـ وإن كان من أهل الطبقة السفلى ـ أن يذكر فيها غيره، ويوصيه بها، وإن كان من

أهل الطبقة العليا . وأما مالاتدركه العامة من الحقائق ويضطر الداعى الى أن يورد في بيانه الادلة ويطارد الشبه ، فأمر الدعوة اليه من حق العلماء القادرين على تحرير بحثه وحسن التصرف في سَوق أدلَّته

يأخذ بعض أهل العلم في وصف الداعي أن يكون صالحاً في نفسه ، مستقيما في سيرته . وهو شرط صحيح بالنظر الى انتفاع الناس بارشاده وتسابقهم الى اجابته ، فانهم على مانرى ونسمع لاتلين قلوبهم لموعظة واعظ ولا يقتدون برأي مرشد الا اذا وثقوا بأمانته وأبصروا في حالته الظاهرة مثالالما ينصحهم به . وقد تبرأ شعيبٌ عليه السلام من مخالفة قومه الى ماحذَّرهم منه فقال « وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه » وجاء في كثير من الآيات المسوقة في فضل الدعوة ذكر صلاح الداعي في نفسه واستقامته في عمله : قال تعالى « ومَن أحسنُ قولاً ممن دعا الى الله وعملَ صالحا » وقال تعالى « هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » . وجاء في التنزيل مافيه تقريع وتعجب من

حال الذي يلقي الموعظة ويبسط لسانه بالامر بالمعروف وهو يترك العمل به ناحية : قال تعالى « أتأمرون الناسَ بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » وفي هذه الآية شاهد على أن من أرشد غيره الى صالح وهو قابض يده عنه أو حذّره مفسدة وهو لايغادر موضعها فقد خالف مقتضى الحكمة ، ودخل فى قبيل الذين لايعقلون

يتوهم بعضُ الناس أن الدعوة الى احترام حقائق الاسلام وآدابه انما هي شأن من شؤون علماء الدين ، وربما ذهب بهم الوهم في مصر أو في تونس — مثلا — الى أنها شأن علماء الازهر أو جامع الزيتونه ، وانبنى على هذا أن بعض من يدرس حقائق الاسلام وآدابه ويستطيع بيان حكمتها ودفع شبه المضلين عنها ، لايهزّ في هذا الغرض قلماً ولا يحرّك به لسانا ، ثم لاترى له من عذر عن هذا التقصير سوى أنه لم يكن من أصحاب العمائم أو أنه لم يكن من علماء المعاهد الدينية ، ان لم يلق اليك هذا العذر بمقاله دلّك عليه بلسان حاله . وقد عرف فريق من حكماء الشرق أن الداعيَ

الى مبادىء الاسلام خادمٌ للانسانيـة عامل على انقاذ الشرق من مخالب الاستعمار ، فوقفوا حياتهم أو جانبا منها على نشر محاسنه وافحام هذه الفئة المتهالكة على محاربته

الفصل السادس

الاخلاص فى الدعوة

الغاية من « الدعوة » صلاح العالم وانتظام شئونه على منهج السعادة . فاذا وجَّه الداعي قصده الى هذا الغرض وأقامه نصب عينه ، استقام على الطريقـة ، وقضى حياته في سيرة راضية . واذا انحرف عن هذا القصـد ولو قيد أنملة رأيته يضطرب فى حال دعوته كالريشة تخفق بها الرياح أينما تصرَّفت . وقدحكى التنزيل في مواعظه أن شعيباً عليه السلام قد برَّأ نفسه ودفعها عن أن تؤم غرضـاً من الدعوة سوى الاصلاح حين قال « إنْ أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله » . ويرشدنا قوله تعالى « قل لاأسألكم

عليه أجراً ، إنْ أجريَ إلا على الله » وقوله تعالى « اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » الى أن تشوف الداعي الى ما في أيدي القوم وتطلعه الى أن ينال من وراء ارشاده شيئا من متاع هذه الحياة ، قادح في صدقه وداخل بالريبة في إخلاصه

ولا يدخل في زمرة المصلحين من يظهر بدعوى الغضب للعدالة ويعلن البغضاء لمن يروم انتهاك حرمتها ، ثم يبصر مرة أخرى قوماً يعمدون الى حقوق قائمة فيفتلون أعناقها فاذا هو يتبسم لصنيعهم تبسم المرتاح أو يشاركهم في دفنها ولو بحثية من تراب . ماذا حمله على حب العمل بالحق والانتصار له أولا ، ثم ماذا بعثه على خذلانه والارتياح لازهاق روحه ثانياً ؟ إقامة الحق في الاولى تعود عليه بمنفعة فكان من أشياعه ، وإطفاء نوره فى المرة الاخرى لا يذهب بحظ من لذائذه فلم يأسف للقضاء عليه

ومن الناس من يضمر فى نفسه لبانة لا تنالها يده الا بمساعدة قومه ، فينصب اسم « الاصلاح » شركا

لاستعطافهم والتفافهم حوله ، فاذا ضحك الاقبال فى وجهه وحان قِطاف أمنيته ، انصرف عن معاضدة العدل وعرّى أفراسَ الدعوة ورواحلها

تهافت كثير من أصحاب الضمائر المعتلة على منصب « الدعوة » واجتهدوا فى كتم سرائرهم بغاية ما يستطيعون ، وما لبثوا أن انكشف سرهم وافتضح أمرهم ، سنة الله فى الذين يظهرون بغير ما يعلمون من أنفسهم ، وهذا ما يجعل أذكياء الناس يحترسون ممن يخرج فى زي مصلح أشد مما يحذرون المجاهر بارادة العنت والفساد ، فأخو العشيرة اذا ظهر لهم فى ثوب الناصح الامين انخدع لاقواله أهل الغباوة والتبس حاله على كثير من أهل النباهة ، فيجد سبلا مفتوحة ونفوساً متهيئة لقبول ما يدسه في مطويّ كلامه ويكنه تحت اسم الاصلاح من مقاصد سيئة ، فيكون كيده أقرب إصابة وأنفذ رمية من خطر المبارز لهم بالعداوة والعمل على شقائهم فان من يكشف لهم عن بطانة صدره لا يرميهم بالمكايد تحت ستار ، ولو رماهم بها فى مواربة لوجدوا من شعورهم بطويته

مايحملهم على سوء الظن به ، وينقذهم من الوقوع فى حبائله

ونحن نرى الذين يصدّون عن الاسلام من المخالفين له علانية لم ينالوا بين الامم الاسلامية إلا خيبة وخسارا ، ورأينا الفئة التي مابرحت تُذكر في حساب المسلمين - وهي تحمل لهم عداوة الذين أشركوا - قد فعلت في فريق من شبابنا ماتقرّ له عين الاجنبى الذى يحاول أن تكون سلطته خالدة

والتمييز بين مَن وقف ينادي للاصلاح صادقاً ومن لبس قميص المصلح عارية - لدنيا يصيبها ، أو وجاهة يتباهى بها - انما تَهدي اليه الفراسة المهذّبة والاختبار الصحيح : فاذا أبصرنا داعياً ذا يسار ولم يظهر في طبيعته حرص على نماء مابين يديه من المال ، أو قام يدعو فريقا ليس من دأبهم بسط أكفهم بصلة الدعاة ، فما كان لنا أن نرميه بتهمة القصد الى اصطياد مافي خزائن الناس من زينة هذه الحياة

ويدلك على سلامة نيته من احراز رياسة أو وجاهة أن ينشأ في بيت ماجد ويحوز في الشرف مكانة سامية ،

فيقوم وهو يشعر بان مجاراته للقوم واغضاءه عما يشاهدهم عليه من العوج تزيد في اقبالهم عليه ويضع قلوبهم في الرضا عن سيرته ، فيضرب عن مداجاتهم ويناضلهم بالحجة ، ولا ينفك يعرض شمس الحقيقة على أبصارهم وهم لها كارهون

ومن شواهد طيب السريرة أن ينادي قومه للاصلاح سنين ، ويتمادى في سعيه المتواصل الى آخر رمق من حياته دون أن يفل عزمه تباطؤهم عن إجابته أو مقابلتهم لصنيعه بالكفران . والشأن فيمن انطوى صدره على سريرة غير طيبة أن يبتغي اليها الوسيلة ، فاذا ابطأت به ولم تقع عينه الا على خيبة واخفاق مل العمل وصرف جهده الى وسيلة اخرى

والذي يواصل سعيه وينفق معظم حياته في الدعوة قد نصفه بسلامة النية وارادة الخير لقومه ، ولكننا لا ننعته باسم « **المصلح** » الا اذا صفا منهجه واستقامت آراؤه ، فمن الدعاة من تطيب سريرته ويخلص قصده وانما يخونه قلة بضاعته في العلم أو قصور نظره عند قياس الاشياء

باشباهها ، أو اقتباس الفروع من اصولها

الفصل السابع

طرق الدعوة

تؤدَّى الدعوة باللسان تارة ، وبالقلم تارة اخرى . ولكل منهما مقام هو أحق به من الآخر : ففى الناس من يُسعده لسانه فيعبر كيف يشاء ، ويمسك القلم فلا يجده مطواعا . وفي الناس من اذا نطق وقع في كبوة ، واذا كتب ابدع ، وبلغ ببيان مايجول في ضميره الأمدَ الاقصى

فينبغي للداعي أن يُبصر فى نفسه ، ويعرف من أي صنف هو ، ثم يأخذ الناس بالطريق التى يركبها ذلولا . فان كان الداعي طلق اللسان بليغ القلم راعى في ارشاده حال المدعوين : فان الناس طبقات ، واذا استوى في نظر الطبقة المستنيرة الخطيب البارع والكاتب الفائق ، فان الخُطب أسرع الى فهم العامة وأنهض بهم الى ماتأمر أو تنهى ؛

ولشدة ماتؤثر الخطب في نفوسهم ترى الرئيس المستبدّ يحنق على الخطباء أكثر مما يحنق على الكتاب

والدعوة بالكتابة أوسع جولة وأخلد أثرا ، ومن فوائدها ارشاد من لا يمكنك أن تخاطبه فوك الى اذنه ، وارشاد المنحرفين عن السبيل ، مع البعد من ساحتهم ، والسلامة من أن يواجهك سفهاؤهم بالسخرية والاذى

عُني الاسلام بالخطابة ، فشرع الخطبَ أيام الجمع والاعياد ليقوم فيها الخطيب بارشادٍ يراعي فيه حال الامة ، فيقرع اسماعها بالموعظة الحسنة ، ويستنهضها للاعمال الكافلة بعزها في الدنيا وسعادتها فى الاخرى

ذهل كثير من الخطباء عن هذه الحكمة ، فالتزموا لكل شهر خطبامعينة يسردونها سرداً ، ولا ينظرون فيها الى مايقتضيه حال الناس في التعليم أو التذكير . وبصنيعهم هذا خرجوا بالخطب عن ان تكون طريق الدعوة الى اصلاح

ونزيد فى حسن الخطبة ونفعها أن تكون من انشاء الداعي ، ويكون نفعها ابلغ اذا استطاع ان يرتجلها ارتجالا .

فان الاقوال التي ينزع معناها بنفسه ، ويسبك عباراتها بطبعه ، تكون ابلغ أثراً في نفوس السامعين ، واملك لعواطفهم ، من أقوال صنعت من قبل فأخذ يحكي ألفاظها حرفا لحرفا . والاقوال المنشأة حال القائها تصدر عن انفعال نفسي ، وقوة ارادة ، فتنفذ فى نفس السامع بالفاظ جديدة وهيأة غير مصطنعة : ويمكنك أن تعرف مقدار انفعال الخطيب وقوة ارادته مما تشاهده في هيأته الظاهرة من تبسم أو استعبار ، وعبوسة جبين أو طلاقته ، ورفع صوت أو خفضه ، الى مايماثل هذا من الآثار التي لا تشاهدها على ظاهر الناقل أو المترجم لكلام غيره ، الا ان يتكلفها !

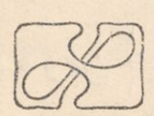
وتختلف طرق الدعوة - من حيث طرز الكلام ، ومبلغ الاستدلال - الى مايفيد يقيناً لا ريب فيه ، والى مايفيد ظنا غالبا . قال تعالى « أدْعُ الى سبيلِ ربّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة ، وجادِلهم بالتي هي أحسن » وقد ذهب بعض أهل العلم الى أن المراد من الحكمة الحجة المفيدة لليقين ، ومن الموعظة الحسنة الأمارات الظنية والدلائل الاقناعية ، ومن

المجادلة بالتي هي احسن الدليل المؤلف من مقدمات مسلمة عند المنازع . وفصل الامام الغزالي في كتاب (الاقتصاد) هذه الانواع من الحجج، وقسم المخاطبين الى ثلاث طبقات ، وعين لكل طبقة نوعا قال : والبرهان يخاطب به الاذكياء ، والخطابة يخاطب بها العوام لانهم لا يفهمون البرهان ، والجدل لا يخاطب به الا المعاندون في الاعتقاد لانهم لا يرجعون عن مذهبهم بالموعظة

ولم يرتضِ الشيخ ابن تيمية تفسير الآية بهذه الطرق المنطقية ، وقال في رسالة (معراج الوصول) : بل الحكمة هي معرفة الحق والعمل به : فالقلوب التى لها فهم وقصد تُدعى بالحكمة ، فيبين لها الحق علما وعملا ، فتبلغه وتعمل به . وآخرون يعترفون بالحق لكن لهم أهواء تصدّهم عن اتباعه ، فهولاء يُدعَون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل . والدعوة بهذَيْن الطريقين لمن قبل الحق ، ومن لم يقبله فانه يجادل بالتى هي أحسن . ثم قال : والقرآن لا يَحتجّ في مجادلته بمقدمة لمجرّد

تسليم الخصم لها - كما هي الطريقة الجدلية عند أهل المنطق وغيرهم - بل بالقضايا والمقدّمات التى تسلمها الناس ، وهي برهانية . وان كان بعضهم يسلمها وبعضهم ينازع فيها ذكرَ الدليل على صحتها

والواقع أن القرآن لا يحتجُّ الا بقاطع ، فان دعوته للناس كافة ، وهدايته للعقول : كبيرة كانت أو صغيرة . ومن حكمته — وهو يدعو البشر قاطبة — أن يقيم على الحق أدلة لا تحوم عليها ريبة ، ولا يستطيع لها كبار الفلاسفة نقضا . أما غيره من الدعاة الذين قد يقصدون لاصلاح طائفة معينة ، فلا جناح عليهم ان يسلكوا في الاستدلال على الحق مايجعله مألوفا للمخاطبين ، وان لم يبلغ في قوة الدلالة ان يقع من طلاب اليقين موقع التسليم



الفصل الثامن

أدب الدعوة

العمل على انقاذ النفوس من وادي الغواية، والاقبال بها على مطالع السعادة؛ مسلك وعر لا يمر فيه على استقامة الا من بلغ في صناعة البيان أمداً قاصيا

لا يكفي في الدعوة أن يكون في يد القائم بها حجة أو موعظة يلقيها في أي صورة شاء، فان المخاطبين يختلفون ذوقاً وثقافة اختلاف الزمن والبيئة، ومن اللائق ان تصاغ دعوة كل طائفة فى أدب يليق بأذواقها أو ثقافتها

الخبرة بما للطوائف من أحوال نفسية، والقاء الدعوة في الثوب الملائم لهذه الاحوال؛ موكول الى ذكاء الداعي ورسوخه فى فنون البلاغة وأدب اللسان. ولا يمنعنا هذا من تذكير القاريء ببعض جمل نوردها كأمثلة للادب الذي تخرج به الدعوة في خطاب بليغ

من أدب الدعوة الرفق في القول، واجتناب الكلمة الجافية، فان الخطاب اللين قد يتألَّف النفوس الناشزة، ويدنيها من الرشد والاصغاء الى الحجة أو الموعظة. قال تعالى في خطاب موسى وهارون عليهما السلام « اذْهَبَا الى فِرْعونَ انّه طَغَى فقولا له قولا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى » ولقّن موسى عليه السلام من القول اللين أحسنَ مايخاطَب به جبار يقول لقومه : انا ربكم الاعلى ، فقال تعالى « فقل : هل لك الى ان تزكى ، وأهديك الى ربك فتخشى » . ويندرج في سلك هذا صرف الانكار الى غير معين كقوله ﷺ في النكير على أهل بَرِيرة وقد عرفهم بأعيانهم « مابال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ؟ » ومن هذا القبيل قوله عليه الصلاة والسلام « مابال أقوام يتنزّهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله اني لاعلمهم بالله وأشدّهم له خشية » وشكا اليه - صلوات الله عليه - رجل من مُعاذ بن جبل حين كان يطيل بهم الصلاة ، فاشتد غضبه ، ولكنه احتفظ بعادته الجميلة فلم يخاطب معاذاً على التعيين ، بل عمم في الموعظة وقال « أيها

الناس إنكم منفرون ، فمن صلى بالناس فليخفف ، فان فيهم المريضَ والضعيف وذا الحاجة »

ومن أمثلة هذا الادب أن يوجه الدعى الانكار الى نفسه ، وهو يعني السامع ، كقوله تعالى فيما يقصه عن رجل يدعو الى الايمان بالله « ومالي لا أعبد الذي فطرنى واليه ترجعون » فانه أراد تقريع المخاطبين اذ أعرضوا عن عبادة خالقهم ، وعكفوا على عبادة مالا يغني عنهم شيئاً ، فأورد الكلام في صورة الانكار على نفسه ، تلطفا فى الخطاب واظهاراً للخلوص في النصيحة ، حيث اختار لهم مايختار لنفسه

ويضاهي هذا الادب أن يضع نفسه بمنزلة السائل المتطلب للحقيقة ، ويقيم الحجة في معرض الاسترشاد ، حتى تعلق بأذهان المخاطبين ، قبل ان يشعروا بغرضه فينصرفوا بقلوبهم عن الاصغاء اليه : ومثل هذا مافعل ابراهيم عليه السلام في محاجّة قومه المشار اليها بقوله تعالى « اذ قال ابراهيمُ لابيه وقومِه ماتَعبدون ؟ قالوا : نَعبد أصناماً فنظل

لها عاكفين . قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرّون ؟ »

وقال تعالى في تعليم رسوله الاكرم كيف يدعو الى الحق « قل الله . وإنا أو اياكم لعلى هُدًى أو في ضلالٍ مُبين » . فاذا لم يظهر الداعي انه على بينة من أمره ، وألقى الكلام في هيأة المتردّد الذى لا يتيقن أن الهدى في جانبه ، كان كالمستعين برأي المخاطب في البحث عما هو حقّ ورشد ، فتنحلّ في قلب هذا المخاطب عقدة التعصب . وربما طمع في الداعى وأخذه الى مذهبه ، فيقبل على النظر بجدّ حتى يمرّ به مغالبة الداعي على الآيات البينات ، فاذا هو ينظر الى الحق : فاما ايمانا بعد واما عنادا

ومن لطف الدعوة أن تنادي المدعوّ بلقبه الشريف ، وتنعته بوصفٍ شأنه أن يبعث صاحبه على قبول الموعظة أو الانصاف في المجادلة . وهذا الادب مقتبس من مثل قوله تعالى « ياأهل الكتاب » ، « ياأيها الذين آمنوا » ، « ياأولي الالباب » ، « ياأولي الابصار » . وقد وصف النبي

صلى الله عليه وسلم هرقل في كتاب دعوته الى الاسلام بعظيم الروم . ويتأكدمثل هذا الادب في موعظة الصغير للكبير والمرءوس لرئيسه ، ولا سيما حيث تُضرب على الدولة طبائع الاستبداد

وقد يفتتح الداعي للرؤساء خطابه بكلمة « إئذن لي » قال ابن شريح لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث الى مكة : « ائذن لِي أيها الامير أحدّثك قولا » وروى له قوله صلى الله عليه وسلم « إن مكة حرّمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحلّ لامرء يؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك فيها دماً » الخ الحديث . فقال له عمرو بن سعيد : نحن أعلم بحرمتها منك . فقال له ابن شريح : إني كنتُ شاهداً وكنت غائباً ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ شاهدُنا غائبنا ، وقد ابلغتك ، فأنت وشأنك

يذهب بعض الناس في الانكار على من يراه مبطلا مذهب الفظاظة في القول ، فيرميه باللعن والشتائم ، وفن الشتم والهجاء مما يبذر الشقاق الذي نهينا عنه ، وربما حمل

المبطل على التعصب لرأيه أو هواه ، وقبض عليه باليمين والشمال

والناس يعرفون أن طريقة السباب في المجادلة انما يسلكها العاجز عن اقامة الحجج الدامغة ، فترى المقال الذي يحرر في سعة صدر وأدب مع المخالف يجد من القبول وشدة الاثر في نفوس القراء مالا يجده المقال الذى يخالطه السفه والحماقة . وكذلك ترى المستيقن انه على حق ، مطمئنّ الخاطر آمنا على مذهبه من صولة الباطل ، فينطق عن أناة وتخيّر للاقوال الصائبة . أما من لم يكن على بصيرة من رأيه أو عقيدته فانه ينزعج عند المجادلة ويطيش به الجدل حتى يقذف بالسباب ويلفظ بالكلام من قبل ان يقيم له وزنا

قد يكون حديثك مع طائفة باعوا نفوسهم بمتاع هذه الحياة واندفعوا لاغواء الامة ، والكيد لشريعتها وحياتها السياسية ، بجميع ماملكوا من صفاقة وعناد وسوء طوية . ولعل الناس يعذرونك حين تتصدّى لكفّ بأس هؤلاء ويجري على لسانك أو قلمك في خلال جدالهم كلمة تتهكم

بعقولهم أو تزدري آراءهم ، او تنبه على مكر انطوت عليه دعايتهم

فانك ان تهكمت بعقول هؤلاء أو ازدريت آراءهم فانما تضعها في مواضعها وتمس خيلاءهم بما يخفف من غلوائها ، وان رفعت الغطاء عن مكايدهم فانما تجادل قوما يجعلون مكان الصريح رمزاً ، ومكان الطعن غمزاً ، ويلبسون أقوالهم المعبرة عن آرائهم ترددا أو ريبا

الفصل التاسع

سياسة الدعوة

ضربنا لك الامثلة في المقال السالف للأدب الذي ينبغي أن يصاغ فيه خطاب الدعوة . أما هـذا الفصل فمعقود في طرق من أدب اللسان يراعيها الداعي ويأخذ بها الدعوة ، فيكون لها في النفوس المستعدة للخير أثر حميد

اذا كان أدب الخطاب يقوم على البراعة فى فنون البلاغة

فان الطرق التي نبحث عنها فى هذا الفصل انما تقوم على نظر تقلبَ فى أحوال الجماعات أطواراً ، ودرسَ سنن الله في الخليقة ، فعرف كيف يسوس النفوس الجامحة ، ويردّها الى قصد السبيل

لا يسهل على القلم استيفاء الحديث عن هذه الطرق ، ولا يسعه الا أن يضرب لها امثلة ، ويكل الامر بعدها الى ألمعيتك ، فهى التى تتناول المعنى القليل فتجعله كثيراً ، وتتلقى القول مجملا فتفصله تفصيلا

من الحكمة فى الدعوة أن تناجي بها الجاهل أو الغافل في خلوة ابقاء للستر عليه ، ورغبة في حسن اصغائه اليك ، فان كثيراً من الناس من اذا ألقيت عليه النصيحة في علن أخذته العزة ، وثنى عطفه عن الاستماع أو الامتثال

فاذا تصامم عن قبولها في خلوة ساغ لك أن تلقيها عليه فى ملأ ، لعله يتألم من الفضيحة ، ويحذر سوء الاحدوثة ، فيعود الى سيرة نقية ويذَّكر كما يذّكر أولو الالباب . قال تعالى في قصة نوح عليه السلام « قال ربّ إنى دعوتُ قومي

ليلاً ونهاراً » الى أن قال « ثم اني دعوتهم جهاراً ، ثم اني أعلنت لهم وأسررت لهم اسراراً »

ومن حكمة الجمع بين الاعلان والاسرار ازالة مايقع في نفس المدعو من اتهام الداعي بأنه ما أراد من دعوته علانية الا تلويث عرضه واذاعة كلمة السوء عن سيرته

ومن حسن النظر أن تكون الدعوة الى المطالب العظيمة بطريق الترقي ، كأن يبتديء المصلح بما هو أيسر عملا ، أو أقرب الى المألوف لدى الأمة ، أو أظهر حكمة لعقولهم . وعلى هذه القاعدة وضع الاسلام سياسته ، فتجد في تاريخ التشريع أنه أمر بالصلاة وسكت عن الكلام في أثنائها ، ثم نهى عنه وجعله من مبطلاتها . وأمر بالانفاق على وجه التطوع ، ثم شرع فريضة الزكاة . ونبه على مفسدة الخمر بقوله تعالى « ويسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس ، وإثمهما أكبرُ من نفعهما » ثم منع منها في حال الصلاة خاصة فقال « لاتقربوا الصلاة وأنتم سُكاري حتى تعلموا ماتقولون » ثم حرّمها في كل حال تحريما

لاهوداة فيه فقال « يا أيها الذين امنوا إنما الخمرُ والميسر والانصابُ والازلامُ رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . وروى عن بعض الصحابة أنه قال : لو جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الدين وبالقرآن دفعة لثقلت هذه التكاليف علينا ، فما كنا ندخل في الاسلام . ولكنه دعانا الى كلمة واحدة ، فلما قبلناها وعرفنا حلاوة الايمان قبلنا ما وراءه كلمة بعد كلمة ، على سبيل الرفق ، الى أن تم الدين وكملت الشريعة . ويحكى عن عمر بن عبد العزيز أن ابنه عبد الملك قال له : مالك لاتنفذ الامور ! فوالله لا أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق . فقال له عمر : لاتعجل يابنيّ فان الله ذمَّ الخمر مرتين ، وحرَّمها في الثالثة . وإنني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعوه جملة وتكون من ذا فتنة . ويشابه هذا أن يقصد الداعي الى أمر فيه مشقة ، فيضع أمامه تمهيدا يخفف وقعه ، ويقلل شأنه ؛ حتى لاتكبره النفوس ، وترتخي دونه العزائم خَورا . ومثال هذا ماسلكه التنزيل في التكليف بفريضة الصيام حيث شرعه أولا فى

أمر مجمل فقال « ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » ، وذكر ان هذا النوع من القربة قد فرض على الامم السالفة ، فقال تعالى « كما كتب على الذين من قبلكم » ، فهو عمل مألوف وشريعة غير خاصة ، وفى هذه التذكرة مايدخله فى قبيل السنن الجارية ويجعله أمرا هينا . ثم أشعرهم بأن أيامه في الحساب قليلة فقال تعالى « أياماً معدودات » . وبعد أن هيأ النفوس لقبول فريضته قال « شهرُ رمضانَ الذي أُنزل فيه القرآنُ هدىً للناس وبينات من الهدىٰ والفرقان ، فمن شهد منكم الشهرَ فليصمه »

وجرى التنزيل على هذه السنة عند الترغيب في أمر صعب المركب شديد الاثر على النفس ، وهو الصبر على الاذى ، ومقابلة الاساءة بالعفو ، فامر بالعدل في المجازاة ونهى عن تجاوز المثل في العقوبة فقال « وانْ عاقبتم فعاقِبوا بمثل ماعُوقِبتم به » . ثم بين في قوله تعالى « ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » أن الاكمل لهم الاغضاء عن السيئة وترك المؤاخذة عليها ، فالصفح عن الاذىٰ — مع

القدرة على الانتقام — ضرب من الكرم، ومظهر من مظاهر الرحمة. ثم قال تعالى «واصبرْ وما صبرُكَ الا بالله» فرغب في الصبر بطريق أبلغ اذ وجّه الخطابَ به الى الرسول الاعظم وهو اسرع الناس الى الاستقامة على الطريقة، فيجدون من سنّة التأسى به نشاطاً للطاعة، وباعثا على التجمل بالصبر، وان ثقُلت على النفوس وطأته

ويُقارب هذا النوع من السياسة أن يأخذ الداعى في تقرير المصالح بوجه عام حتى يأنس لها الناسُ ويتفقهوا في طرق الخير على سبيل الاجمال، ثم يندبهم الى الاعمال المندرجة تحتها ببيان وتفصيل، فان من السهل على البشر قبول القضايا الكلية، وقلما نازعوا في صحتها. واكثر مايقع منهم الانكار والاختلاف في المسائل الجزئية وأحكام النوازل المعينة، وعلى هذا النمط أدار الاسلام سياسته فأسّس معظم قواعده العامة بمكة، وشرع أكثر الاحكام الفرعية بالمدينة المنوّرة

ومن حسن السياسة ألاّ يجهر برأيه الصريح في صدر

مقاله ، وانما يبتدىء بما يخفّ على المخاطبين سماعه من المعانى الحائمة حول الغرض ، ثم يعبر عن المراد بلفظ مجمل ويدنو من ايضاحه شيئا فشيئا حتى لا يفصح عنه إلا وقد ألفته نفوسهم ، وهدأت له خواطرهم . وعلى هذه الطريقة جرى ذلك المؤمن من آل فرعون ، فقد كان يكتم إيمانه وهو يحب أن يظهره ويدعو قومه الى مثله ،وكان يخشى - من التصريح بعقيدته - بادرة غضبهم او انتقامهم منه ، حتى اغتنم وقت إجماعهم على قتل موسى عليه السلام فرصة وقام ينكر عليهم هذه المؤامرة المخزية ، وتخلص الى أن دعاهم الى الايمان بما بُعث به هذا الرسول دعوةً ظاهرة ، قال تعالى «وقال رجل مؤمنٌ مِن آل فِرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أنْ يقولَ ربيَ الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم »

فاتحهم بالانكار على قتله وهو لا يدلّ على أنه مصدّق برسالته ، اذ قد ينهى العاقل عن سفك دم الرجل أو اضطهاده ، وهو من أبغض الناس اليه ، تألما من مشهد الظلم أو حذرا مما ينشأ عنه من فتنة ، ودل

بقوله « أن يقول ربى الله » على ما لهذا الرجل من فضل في العقيدة ، وأومأ الى أنه لم يجىء شيئا نكرا يستحقّ به هذه العقوبة الصارمة ، وذكرهم اذ قال « وقد جاءكم بالبينات من ربكم » بالدلائل القائمة على صدقه في دعوى الرسالة ، وقد أخذ يتقرّب بهذه الجملة من دعوتهم الى الايمان به ، ولم يرد التظاهر بأنه من شيعته فعزل نفسه عمن جاءهم بهذه البينات وأضاف مجيئها اليهم خاصة ، ثم استرسل في موعظته المنسوجة في أدب الانصاف الى ان صدع ببطلان نحلتهم ، ودعاهم الى دين الحق بقوله الصريح ، قال تعالى فيما يقصه عنه « وياقوم مالي ادعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار ، تدعونني لاكفرَ بالله واشرك به ماليس لي به علم ، وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار »

قد يسكت المرشد عن بعض مايكون حقا ، أو يتعرض له بعبارة مجملة أو ذات وجهين ، اذا لم يساعده الحال على ان يصدع به ورأى ضرر التصريح به ارجح من نفعه . وليس له ان يقول غيرَ الحق بقصد أن يتألف أصحاب النحل

والمذاهب الزائغة ويستدرجهم الى ما يُورده بعده أو يثبته في حديثه من الحقائق والدلائل الفاضحة لمعتقداتهم وأوهامهم. وزعم الرازي صحة هذا الصنيع ، وعدَّه من حكمة المتشابه في التنزيل ، وحمل عليه قول ابراهيم عليه السلام في محاجة قومه الواردة في القرآن « هذا ربى » مشيرا الى النجم ، ثم القمر ، ثم الشمس . وقد ذكر المحققون للمتشابه وجوها أظهر من هذا الوجه ، وفهموا قول ابراهيم عليه السلام على غير هذا التأويل

ومن حكمة الداعي أن يسبق الى العمل بما يأمر ، فقد يكون اقتداء الناس بافعال المصلح أقرب من اتباعهم لاقواله ويشهد بهذا سيرة النبي ﷺ في شرع الاحكام ، فتراه في بعض الاحيان يصرح بالاذن في أشياء فلا يبادرون الى فعلها ويستمرّون على الاحجام عنها حتى يقرّرها بالعمل ثانيا . تجده قد اذن لهم — وهم على سفر — في الافطار شهر رمضان ، وبقي هو صائماً ، فلم يقطعوا صومهم حتى عمد الى الفطر فخفّوا الى الاقتداء بفعله ، وأفطروا . واذن لهم في

نكاح من كنّ أزواجا لادعيائهم ، فكبر عليهم ان يخرقوا هذه العادة ، حتى تزوج صلى الله عليه وسلم بزينب بعد ان فارقها مولاه زيد ، وفى هذا المعنى نزلت آية « فلما قضى زيدٌ منها وَطراً زوّجناكها لكيلا يكونَ على المؤمنينَ حرَج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وَطراً وكان أمرُ اللهِ مفعولا »

ومن الوسائل التي يكون لها أثر في تألّف الجاهلين أو المفسدين ، وتهيئتهم الى قبول الاصلاح ، بسط المعروف في وجوههم ، وارضاؤهم بشيء من متاع هذه الحياة ، فان مواجهتهم بالجميل ، ومصافحتهم براحة كريمة ، قد يعطف قلوبهم نحو الداعي ، ويمهد السبيل لقبول مايعرضه عليها من النصيحة . والنفوس مطبوعة على مصافاة من يلبسها نعمة ، ويفيض عليها خيرا . ولمثل هذه الحكمة ذكر القرآن فى مصارف الزكاة صنف المؤلفة قلوبهم فقال تعالى « إنما الصدَقاتُ للفقراءِ والمساكين والعاملينَ عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل »

الفصل العاشر

الاذن فى السكوت عن الدعوة

انما تسقط فريضة النصح والدعوة الى الحق في موضعين :

أحدهما : أن ينشأ عن الامر أو النهي مفسدة أعظم ، وذلك ما تقتضيه قاعدة ارتكاب أخف الضررين اذا تعارضا .

ومن شواهده أن النبي صلى الله عليه وسلم كره من الصحابة تناولهم الاعرابي حين أخذ يبول فى المسجد ، ونهاهم عن ذلك وقال « انما بُعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » فالبول في المسجد تلطيخ لمحل العبادة بنجاسة ، وفي قطعه عمن شرع فيه مفسدة أكبر منه ، وهي ما يحدث عنه من علة في البدن . والنجاسة تزال بالماء . ومن العالم ما ينبو عنه رأي الطبيب ويخونه فيه الدواء ، واعتناء الاسلام بالمحافظة على سلامة الابدان غير قليل ل

ويماثل هـذا أن يكون صاحب الضلالة ممن يطغى على الداعي ويستنكف أن يكون بمنزلة الصادر عن إرشاده أو تذكيره ، فيأخذه الاعجاب بسطوته الى ارتكاب جهالة أفظع من الاولى حتى يغيظ داعيه الى الخير ، ويتظاهر بالغلو في مخالفة أمره أو نهيه

ولا يدخل في هذا القبيل أن تجري عادة العامة بترك سنة أو فعل بدعة ، ويكون أمرهم أو نهيهم سبب ثورة لا تتجاوز القلم أو اللسان ، فاذا شد المصلح قلبه باخلاص ، وتحرَّي الادب جهده ، فلا جرم أن يكون لدعوته الاثر النافذ والعاقبة الحسنة ، وليس السكوت عن صنيعهم أو التمحل في تأويله والفتوى بصحته الا مداهنة وايثاراً للخلق على الحق ، ولا يلبس هذه الخصلة المنكرة الا قصير النظر أو ضعيف الارادة

ولاحق لاحد في أن يكتم مافرض الله معرفته معتذراً بالخوف من أن يقع المخاطبون في سوء فهم أو اضطراب

فكر ، فان هذا النوع من العلم لا تحار في ادراكه العقول ، وانما يقوم مثل هذا معذرة للسكوت عن الحق الذي لم يكلف الناس بعلمه ، وهو المراد بقول الامام علي كرم الله وجهه « حدّثوا الناس بما يفهمون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله ! » ومن هذا حديث عائشه رضي الله عنها ، قالت : قال النبي ﷺ : ياعائشة لولا قومك حديثٌ عهدهم بكفر — وفي رواية « بجاهلية » — لنقضتُ الكعبة فجعلت لها بابين باب يدخل الناس وباب يخرجون » والذى تحاماه ﷺ أن يظن بعضهم — لقرب عهدهم بالاسلام — أنه غير بناء الكعبة لينفرد بالفخر عنهم

ثانيهما : أن يوقعه الامر أو النهي في بلاء ، ويلحق به ضرراً فادحا . وعدَّ الامام الغزالي من هذا البلاء الاستخفاف به على وجه يزري بكرامته . وقد يكون هذا عذراً في صرف الدعوة عن طائفة خاصة عرف منها هذا الخلق اللئيم ، ولا يصح أن يكون عذراً في الاحجام عن دعوة

الامة الى صالح وان وجد فيها طائفة تطلق ألسنتها بسباب المصلحين ، وتباهتهم في المجامع أو الصحف بغير حساب

وقد اتخذ بعض المفسدين هذا السباب والمباهتة سلاحا يشهرونه في وجوه من يعترضون دعايتهم بالانكار ، ولو كان مثل هذا الاذى يجيز لاهل العلم أن يخلوا سبيلهم ويغمضوا عن منكراتهم لسرت تلك الدعاية سريان السم الناقع ولوثت هذه الفطر السليمة برجس الغواية ، ولا مرية في أن بلية الاغواء أشد ايلاما لعقلاء الامة وأسوأ عاقبة من أن تنهش أعراضهم بألسنة حداد

ويرى الشيخ ابن عرفة أن خوف العزل من المنصب لايعد عذراً يسقط عن الرجل فريضة النهي عن المنكر ، واذا كان بعض من لا يرجون لله وقارا قد يدعوه الحرص على احراز سمعة فاخرة الى أن يذود عن المصلحة العامة ويزدري الولاية ولا يبالي أن يصبح عاطلا من قلادتها ، أفلا يليق بأهل التوحيد الخالص ـ ماداموا يستيقنون أن

الله يرزق الداعي الى الاصلاح من حيث لا يحتسب - أن يكونوا أزهد الناس في المنصب الذي يطوي ألسنتهم عن قول الحق أو يحملهم على مجاراة رئيس لاينهى النفس عن الهوى !

فاذا اعتقد الداعي الى الاصلاح بما يناله من عذاب وبلاء فهو في سعة واختيار من تحمل الاذى أوطلب السلامة فان شاء أخذ بالعزيمة ورفع صوته بالدعوة الى الحق ، وإن شاء تمسك بالرخصة التي يتمسك بها المستضعفون من الرجال والنساء

وقد آثر جماعة من علماء الاسلام لقوة غيرتهم على العدل وشدة رغبتهم في الصالحات أن يأخذوا بالعزم ويحافظوا على الجهر بالارشاد ، وان كره المفسدون جهرهم ، وأذاقوهم من ألوان جورهم عذابا أليما . ومن قصصهم فى هذا الشأن أن الملك اسماعيل والى الافرنج وسلم لهم صيدا وغيرها من الحصون لينجدوه على الملك نجم الدين أيوب فأنكر عليه

الشيخ عز الدين بن عبدالسلام هذه الفعلة الخائنة فغضب عليه الملك وعزله عن مناصبه ، وأمر باعتقاله ، ثم بعث اليه من يعده ويمنيه لعله يرجع عن انكاره ويرضى ، فجاءه الرسول وقال له : تعاد اليك مناصبك وزيادة ، وما عليك الا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لاغير . وما كان جواب الشيخ الا أن قال له : والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلا أن أقبل يده ، ياقوم أنتم في واد وأنا في واد



الفصل الحادي عشر

علل اهمالها

ما بال الرجل يعرف مناهج الصلاح ويبصر طائفة من قومه يتهافتون على عماية أو يهيمون في جهالة ولا تنهض به الهمة ليعمل على افاقتهم من سكرتهم وإراءتهم معالم فوزهم ؟

أخذنا نبحث عن منشأ هذا التقصير ، وندير النظر في البحث كرتين ، فرأينا مدار علته الفاقرة على عشرة أسباب :

(١) المداهنة ، فمن أهل العلم من يرى ذا جاه أو رياسة يهتك ستر الادب أو يعثو في الارض فساداً فيتغابى عن سفهه أو بغيه ويطوي دونه التذكرة والموعظة ابتغاء مرضاته أو حرصاً على مكانة أو غنيمة ينالها على يديه . ومن البلية أن المترفين ومن ينحو نحوهم في الزيغ والغرور لا يكتفون ممن يسوقه الزمن الى نواديهم أن يسكت عن جهلهم ويتركهم وشأنهم . وانما يرضيهم منه أن يزين لهم سوء عملهم أو يرمقهم بعين مكحولة بتبسم الاستحسان وهو أقل شيء يستحق به في نظرهم لقب كيس ظريف !

والمداهنة خلق قذر لا ينحط فيه الا مَن خف في العلم وزنه أومن نشأ نشأة صغار ومهانة ، وهذا تاريخ العلماء الراسخين ناطق بما كان لهم من الاقدام على وعظ الامراء ، والانكار عليهم اذا أساءوا التصرف أو أهملوا . قال عز الدين بن عبد السلام للملك نجم الدين أيوب في مجلس حافل برجال الدولة : يا أيوب ماحجتك عند الله اذا قال لك : ألم أبوّىء لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ! فقال : هل جرى هذا ؟ فقال : نعم ، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة . فقال : هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي . فقال : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة ! فرسم الملك بابطال تلك الحانة (١)

نعلم أن السلطة السياسية تتنقل اطوارا ، وان موقف العلماء امام الامراء يختلف على قدر مايكون للعالم من مكانة في قلوب الامة ، وعلى قدر مايكون للامير من حماقة أو

---

(١) طبقات الشافعية لابن السبكى

أناة . واختلاف السياسة أطوارا أو اختلاف مواقف العلماء أمام الامراء انما يقتضى أن يكون لكل طور سياسى ـ أو لموقف كل عالم ـ أسلوب في الدعوة يطابق مقتضى الحال ، أما اصل دعوة الامراء الى حق أو صالح ، ففريضة قائمة ، وعزالدين بن عبد السلام وأحد علماء هذا العصر ـ في احتمال امانتها ووجوب تحرير الذمة بادائها ـ على سواء

(٢) ضعف الجأش وقلة الصبر على المكاره ، وهو خلق يقطع لسان صاحبه عن قول الحق مخافة أن لا يرتضي بعض الناس قوله فيضمروا له البغضاء ويسوموه أذى أو تهكما

وكم سقت فى أثارهم من نصيحة
وقد يستفيد البغضة المتنصح

وقد تعرض الكتاب العزيز لخصلة الاستهزاء بالمرشدين ونبه على أنها عادة مألوفة وأذى يعترض فى طريق كل مناد بالاصلاح ، قال تعالى « ولقد أرسلنا من قبلكَ في شِيع الاولين ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون »

وقد يقص علينا من بذائهم ومكرهم مايصح أن يكون من حكمه تسلية الدعاة وتأكيد عزمهم على مواصلة الدعوة وقلة الاكتراث بما يلاقونه من شغب واساءة ، فاذا لقي رُسل الله عليهم السلام من سفهاء القوم أذى كثيراً فاغمضوا عنه وداسوه بأقدامهم فلا يسع غيرهم ممن يريد الخير لامته الا أن ينصح لهم ويفتح في طرق الهداية أبصارهم ولا يبالي بمن ينغض اليه رأسه ساخراً ، أو يطلق فيه لسانه لامزا

(٣) ان في الرؤساء من تجمح بهم أهواؤهم عن ناحية العدل ولا يرقبون لفضيلة العفاف عهدا ، فيكيدون لكل من شأنه الدعوة والاصلاح لكيلا يتعرض لسيرتهم أو يتطاول الى نقد سياستهم . وهذا الضرب من الاستبداد يلقى في النفوس الضعيفة حذراً بالغاً ويقلب العارفين بطرق الاصلاح الى حال الغافلين عنه فتراهم ينظرون الى الفساد يتقلب في البلاد كانهم لا يبصرون

قد يعذر أمثال هؤلاء في عدم التعرض لاحوال الرؤساء المستبدين حيث اعتقدوا أن خوضهم فيها يسوقهم الى عقوبة

لا طاقة لهم بها . ولا عذر لاحد في الصمت عن التذكير جملة الا اذا بلغ هؤلاء المستبدون أن يضعوا عقوبتهم على ظهر كل من ينهى عن منكر ولو لم يكن له صلة بسياستهم الجائرة ، ولعلك لا تجد في أنباء الدول من يتخبطه شيطان الاستبداد حتى يسطو على كل من ينطق بالحكمة والموعظة، وواجب العلماء أن يقوموا بالاصلاح والارشاد في دائرة الامكان

(٤) أن يغلوَ العالم في الورع فيأبىٰ الذهاب الى حيث يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر ، حذراً من أن يغشى ناديَ منكرٍ أو يختلط بصاحب ضلالة . حكى القاضى عياض في كتاب (المدارك) أن عضد الدولة فنا خسرو الديلمى بعث الى أبي بكر بن مجاهد والقاضى ابن الطيب ليحضرا مجلسه لمناظرة المعتزلة ، فلما وصل كتابه اليهما قال الشيخ ابن مجاهد وبعض اصحابه : هؤلاء قوم فسقة لا يحل لنا أن نطأ بساطهم، وليس غرض الملك من هذا الا أن يقال : إن مجلسه يشتمل على أصحاب المحابر كلهم، ولو كان مخلصا لنهضتُ . قال القاضى

ابن الطيب: فقلت لهم: كذا قال المحاسبي وفلان ومن عاصرهم: إن المأمون فاسق لا يحضر مجلسه حتى ساق احمد بن حنبل الى طرسوس وجرى عليه ما عرف ، ولو ناظروه لكفوه عن هذا الامر وتبين له ماهم عليه بالحجة . وأنت ايضا أيها الشيخ سلكت سبيلهم حتى يجرى على الفقهاء ماجرى على احمد ويقولوا بخلق القرآن ونفي الرؤية ، وها أنا خارج إن لم تخرج . فقال ابن مجاهد : اذا شرح الله صدرك لهذا فاخرج

(٥) أن يقوم الرجل بالارشاد فلا يجد ممن فيهم الكفاية مساعداً ، وربما أدخلوا في قلبه اليأس وسدوا باب الامل في وجهه متكئين على دعوى فساد الزمان وعدم إفادة النصيحة عند غلبة الفساد ، وهو الخاطر الذي يسر أعداء الادب أن يستقر في نفس كل مؤمن فيجدوا من خمول أهل العلم وكسلهم ما ينشط بهم الى أن ينادوا للخروج على الفضيلة وهم آمنون

(٦) أن يجد العالم في سيرته سيئة أو سيئات فتلقي في

نفسه الذلة والرهبة ويترك الارشاد حذراً من أن يلمزه بها الناس حين يقوم بينهم مقام الواعظ الامين . والعادة أن من يخرج للناس في ثوب مرشد وقد علقت بسيرته وصمة لم يلبثوا أن يذكروه بها وينشدوه :

يا أيها الرجل المعلم غيرَه هلاّ لنفسك كان ذا التعليمُ

فينبغي للعالم أن يكون ذا نفس زكية ، وساحة نقية ، حتى لا يكون الخلل في سيرته كالشجا يقف له في لهاته ، ويمنعه من هداية المسرفين . وعلى أى حال كان لا يليق به الاحجام عن الارشاد فان ما يعرفه له الناس من زلل قد يصرف عنه وجوه العامة ويقعد بهم عن سماع موعظته ، أما الخاصة فربما انتفعوا بدعوته الموصولة بالحجة أو بيان الحكمة

(٧) العداوة تنشب بين الرجل والفئة الجاهلة فتمسك لسانه عن نصيحتهم وانذارهم ليتمادوا في ضلال ويتساقطوا على عمل يهوي بهم في خسار . وقد خادعت هذا البائسَ نفسه فرمت به في غش ، وساقته الى التهاون بواجب النصيحة

(٨) الشفقة تفيض في فؤاد الرجل وتطغو على حبه

للاصلاح فترده عن أمر الشخص بصالح فيه كافة . والشفقة كسائر الفضائل التى يخرج بها الافراط الى مالا يسمى فضيلة وقد نهى القرآن عن مثل هذه الشفقة الطاغية فقال تعالى « الزانيةُ والزانى فاجلدوا كلَّ واحدمنهما مِائةَ جلدة ، ولا تأخذْكم بهما رَأفةٌ في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » . فالحدود والنظم وضعت لحفظ المصالح واستيفاء الحقوق ، فيجب ألا يكون للرأفة الداعية الى الاخلال بشيء من اقامتها أثر يرى . وأخرج ابن جرير في تاريخه عن سالم أن عمر بن الخطاب كان اذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال : اني نهيت الناس عن كذا وكذا ، وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير ، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة لمكانه منى

(٩) أن يكون المستحق لان يوجه اليه الداعي أمره أو نهيه مثل أب مطاع أو معلم محترم ، فيبلغ به الحياء منه والاحترام لمقامه أن يسكت عن دعوته المشعرة بنسبته الى جهالة أو خطيئة . وفيما قصه الله علينا من موعظة ابراهيم

عليه السلام لآزر وتسميته أباً ما يرشدنا الى أن الابوّة لاتمنع من الامر بمعروف أو النهي عن منكر ، ولكن الاب يستحق من أدب الخطاب ولطف الموعظة أكثر ممايستحق غيره . وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام ، واتباع الاول للثانى بصفة متعلم ، ثم انكاره عليه خرق السفينة وقتل الغلام واقامة الجدار ، عبرةٌ للمتعلمين والمعلمين فللمتعلمين حق الانكار وعلى المعلمين أن لايستنكفوا !

(١٠) علة نادرة ، ولا ندري هل بقي لها من أثر الى هذا اليوم ، وهي انه كان فى الناس من يبدو له ان يترك بعض اعمال الخير ، حذراً من أن يخالط قصدَه الرياءُ والتطلعُ للسمعة ، فيقلص نور اخلاصه ، ويفوته ثواب الله في الآخرة . وتركُ الدعوة بمثل هذا الوسواس ورعٌ خادع وماعلى العارف بالاصلاح الا ان يجاهد نفسه ويأخذها بأدب الاخلاص مااستطاع ، ومخافةُ الرياء تجاه فائدة الدعوة الى صالح لاغية

(١١) علةٌ نشأت في هذه الايام ، وهي أن الذين في

قلوبهم زيغ قد وجدوا من القوة المادية ، وسلطان الدول الاجنبية ، مازرين لهم نشر دعايتهم الهازلة ، فصادفت من بعض الاحداث أفئدة هواء ، فباضت فيها وفرخت ، وأخذ الالحاد يدرج على ألسنتهم ، وصفاقة المجان بارزة على وجوههم . وقد ينظر بعض أهل العلم الى أن هذه الفتنة لم يسبق لها مثيل فيما سلف فيهاب سطوتها ويحسبها ناراً لا يمكن إطفاؤها ، فيذوب أمامها ويوليها ظهره يائسا !

وما هذه الفتنة الا جولة باطل يتوكأ على قوّة مادية فمتى لقي في سبيله الحقائق تكتنفها البينات ذهب جُفاء ولا يبقى له أثر إلا في نفوس يذهب المنطق بين جهالتها وشهواتها ضائعا



الفصل الثاني عشر

آثار السكوت عن الدعوة

ينزوي العارفون بوجوه الاصلاح فيرفع البغي لواءه ، ويبقى إخوان الفساد يتردّدون على نوادي المنكرات ؛ والبغيُ يضرب على الامة الذلة والمسكنة ، والانهماكُ في المنكرات يميت خصال الرجولة من نحو الشجاعة وشدة البأس والبذل في سبيل الخير . واذا تفشى وباء البغي والفساد تداعت الاخلاق الفاضلة الى سقوط ، ونضب ماء الحياء من الوجوه ، ووهنت رابطة الاتحاد في القلوب ، وتضاءلت الهمم عن معالى الامور ، وقلت الرغبة في الآداب والعلوم. وما عاقبة الامة المصابة بالذل والاحجام والجهل والتفرّق وقلة الانفاق في سبيل البر الا الدّمار ، قال تعالى « واذا أردنا أن نُهلك قريةً أمرنا مُترَفيها ففسقوا فيها فحق عليها القولُ فدمَّرناها تدميرا » . ومن اكبر الدّمار الذي تبتلى به الامم الفاسقة أن تقع ناصيتها في قبضة خصمها العنيد ، وفي التنزيل

الحكيم مايفيد أن لمرتكبي فاحشة الظلم عاقبة وبيلة هي وقوعهم تحت سيطرة الظالمين ، قال تعالى « وكذلك نولّي بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون »

ولا يحسب الذين ينقطعون عن إرشاد الضالين ووعظ المسرفين أن اقبالهم على شأنهم واقتصارهم في العمل الصالح على انفسهم يجعلهم فى منجاة من سوء المنقلب الذي ينقلب اليه الفاسقون ، والذي جرت به سنة الله في الامم أن وباء الظلم والفسوق اذا ضرب في أرض وظهر في اكثر نواحيها لا تنزل عقوبته بديار الظالمين أو الفاسقين خاصة ، بل تتعدّاها الى ماحولها ، وترمي بشرر يلفح وجوه جيرانهم الذين تخلوا عن نصيحتهم ولم يأخذوا على أيديهم ، قال تعالى « واتقوا فتنة لا تُصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة » ومن الفتن ما ينزل على القرى الظالمة ويأتي على المؤمنين منهم ، ولو لم يلبسوا ايمانهم بترك النصيحة وقاموا بالامر والنهي جهدهم . فانك تجد فيما تطالعه من انباء الامم أن الامة التى يجوس خلالها الظلم والفساد لا تلبث أن تسقط من شامخ

عزها : فاما أن تقبض عليها يد أجنبية ، واما أن تحلّ بها قارعة سماوية ، وما كان من نوع هاتين العقوبتين يتناول الافراد الذين نصحوا لقومهم فلم يقبلوا ، كما يتناول الصبيان ومن لا قدرة له على الجهر بالنصيحة . روي في الصحيح عن زينب بنت جحش ، قالت : قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال « نعم ، اذا كثر الخبث » وعن ابن عمر أنه سمع أباه يقول : قال رسول الله ﷺ « اذا أنزل الله عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بُعثوا على أعمالهم »

ومن البلية في سكوت العلماء أن العامة يتخذونه حجة على إباحة الاشياء أو استحسانها ، فاذا نهيتهم عن بدعة أو سيئة وسقتَ اليهم الدليل على قبحها ومخالفتها لما شرع الله ؛ كان جوابهم أنهم فعلوها بمرأى أو مسمع من العالم فلان ولم يعترض فعلهم بانكار

ومن أثر التهاون بالارشاد أن يتمادى المفسدون في لهوهم ، ولا يقفوا في اتباع شهواتهم عند غاية ، فتقع أعين الناس على هذه المناكر كثيراً فتألفها قلوبهم حتى لا يكادوا

يشعرون بقبح منظرها أو يتفكروا في سوء عاقبتها . ومن أثر هذا ان يقبل عليهم الحق بنوره الساطع ووجهه الجميل فتجفل منه طباعهم وتجفوه أذواقهم لاول مايشرف عليها

ومن أثر السكوت عن بيان الحق والدعوة اليه أن نبتت هذه الفئة التى تحاول القضاء على الآداب الفاضلة والنظم الحكيمة ، وتهذي باسم الجديد والقديم وأنصار الجديد وأنصار القديم ، وبلغت باخلاصها للقوة التى يعد الاخلاص لها جريمة أن أخذت تدفع بعض أذنابها الى ايذاء الامة بتضليل ابنائها والطعن في شريعتها ، يفعلون هذا وهم يعلمون مافيه من تمزيق رابطة الالفة وصدع بناء الوحدة ، يفعلون هذا وهم يعلمون انهم سيشاغبون أفكاراً وأقلاماً تعمل على اصلاح شؤون الامة وتجاهد فى سبيل خلاصها ، كأنهم يبتغون منها أن تنصرف عن هذه الغاية السامية وتقضى الزمن في جدالهم وكشف اللثام عن بنات جهلهم ومواقع أهوائهم ، وهذا ماوقع والى الله المشتكى

واذا كان ضرر هذه الفئة على الحياة السياسية يساوي ضررها على الحياة الادبية فان تقويمها وحماية الشعوب من وبائها لا يجب على رجال الدين خاصة ، بل هو حق على كل من يغار على الادب والنظام واطلاق الشعوب من قيود الاستعباد



الفصل الثالث عشر

ما يدعى الى اصلاحه

يجري الانسان في أعماله على وفق ما يريده من أوضاعها وهيئاتها ، وللارادة صلة بالعقائد تصفو لصفائها وتخبث لخبثها فالايمان بيوم البعث والجزاء تنشأ عنه ارادة فعل الخير ، كالانتصار للمظلوم أو ايثار ذي الحاجة ، دون انتظار جزاء أو شكور في هذه الحياة . والجحود بعلام الغيوب انما يكون مثار الارادات الذميمة ويزين لصاحبه أن يعقد نيته على ارتكاب الفحشاء والمنكر ان لم يكن علنا فمن وراء ستار ، فاذا زاغت العقائد كانت أعمال صاحبها بمنزلة من يرمي عن قوس معوجة أو يضرب برمح غير مستقيم

واذا كان في الانابيب حيفٌ

وقع الطيش في صدور الصعاد

اذاً يجب على الداعى أن يوجه عنايته الى محو المزاعم الباطلة وربط قلوب الناس بالاعتقاد الصحيح

وللطباع الراسخة أثر في المسابقة الى الاعمال أو التباطوء عنها ، كسجية الكرم تنهض بالامة الى انشاء الجمعيات العلمية وتبسط أيديهم بالبذل في سبيل المشروعات الخيرية

ومما ينبهك على أن للاخلاق سلطانا على الارادة انك ترى المسلم يعتقد بفريضة الزكاة ويقرأ مايناله في تركها من عذاب ، ثم لايكون منه الا أن يقبض يده عن قضاء واجبها مطاوعة لداعية الشح وايثاراً للذة العاجلة على السعادة الباقية . واذا كانت السجايا ميسرة للاعمال ومساعدة على صدورها بسهولة دخل في وظيفة المصلح الدعوة الى نبذ الاخلاق السافلة والتحلي بالاخلاق الفاضلة

واصلاح الاخلاق بالمقالات العامة نافع ، وأقرب الوسائل في تربيتها أن يركبها المصلح في طبيعة كل شخص بعينه ، فكثير من الناس يتعلم الاخلاق الحميدة ولا يشعر بانه عارٍ من حليتها ، وقد يدرك حقيقة الُخلق الحسن وحقيقة ضده نظريا وتتشابه عليه صورهما في الواقع فلا

يكاد يفرق بينهما

وفى النـاس من عدّ التواضع ذلة

وعدّ اعتزاز النفس من جهله كبرا

ومن هنا كانت تربية الابوين الصالحين أرسخ أثراً من الادب الذي يتلقاه الناشىء من الدرس أو الـكتاب

وكان المصطفى صلوات الله عليه يرشـد الى مكارم الاخلاق بالحـكمة العامة ،ويتولى تربيـة الافراد على وجه خاص ، فكثيراً مانرى في الاحاديث الواردة في الحثّ على الخلق الجميل مايصرف الخطاب به الى شخص بعينه كقوله عليه السلام لمعاذ بن جبل « أحسن خلقك للناس » وقوله لجارية بن قدامة « لاتغضب »

ثم ان العمل لايكون حسنا في نفسه الا أن يسير به صاحبه في سنة الله ويقتدي فيه على آثار حكمته البالغـة ، فكان من شرط المصلح درس كتاب الله وسيرة رسوله الاعظم ليكون على بصيرة من الاعمال التي يدعو الناس اليها. وقد ترامى على مقام الدعوة نفر لايدرون ما الحكمة ولا

يفرقون بين السيرة القيمة والسيرة الضالة ، فلطخوا النفوس بارجاس تكاد تشبه هذه الارجاس التى تسيل من أفواه طائفة يسمون أنفسهم المجددين

وحيث كانت الامة تفتقر في بقائها وطيب حياتها وحماية ذمارها الى وسائل شتى ، كالصنائع والعلوم النظرية ـ من نحو الطبيعيات والرياضيات ـ أصبحت هذه الوسائل من قبيل ما تجب الدعوة اليه ، كما صرح بذلك أبو اسحاق الشاطبي وغيره من الراسخين في العلم ، فان عظم مصلحتها والخطر الذى ينشأ عن اهمالها دليل واضح على أنها داخلة فيما تأمرنا حكمة الله بالمسابقة اليه ولكن الاسلام لم يفتح العيون في كل موضع من مواضع إصلاحها ، وما أعطى لتفاصيلها قواعد كما فعل في قسم العبادات والمعاملات والجنايات ، وانما أرشد اليها في كثير من أوامره كقوله تعالى « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة » ثم فوّض استنباطها واختيار ما هو الاصلح منها الى الفطر السليمة والعقول الراجحة كما قال المصطفى صلوات الله عليه في واقعة

تأبير النخل « أنتم أعلم بأمور دنيا كم » فان تمييز النافع والضار في مثل هـذا لا يكاد يفوت مدار كهم أو يضيق عنه طوق عقولهم

وقد يسبق غير العارفين بأدب الشرع الى بعض نظم مدنية أو فنون حيوية ، فلا حرج على اخوان الاسلام أن يحاكوا غير المسلمين ويعملوا على مثالهم فيما يحسن في نظرهم من هذه النظم أو الفنون ، فان احجـامنا عن أخذ ما بايدى المخالفين من المعارف والنظم المفيدة فى هذه الحياة يفضى بنا ـ كما قال أبو حامد الغزالي ـ الى أن نحرم من كل صالح سبقونا اليه

فمن واجب دعاة الاصلاح أن يجيـدوا البحث عن أحوال الامم الاخرى لعلهم يقتبسون منها ما يليق بحياة أمتهم كما يتعين عليهم أن يعرفوا أسباب ارتقـاء الشعوب وعلل سقوطها ليستعينوا بها في ضرب الامثلة ويؤيدوا بها صواب ماتهديهم اليه البصيرة الخالصة

واذا استبان لنا أن وجوه الاصلاح كثيرة وأن الدعوة

لا تنهض بالامة الا أن تأتي على كل علة فتصف دواءها ،
أدركنا شدة الحاجة الى أن يكون المتصدى للدعوة جماعة مؤلفة
من رجال رسخوا في علوم الشريعة وألموا بالعلوم العمرانية
والشؤون المدنية ، يجتمعون فيبحثون ويسيرون تحت راية
الاخلاص والانصاف ، ولو تقارب ما بين من درسوا علوم
الاسلام ومن درسوا العلوم الاخرى من المؤمنين وتعاونوا
على الدعوة لاقاموها على وجهها المتين وشادوا من قوة ايمان
الامة وشرف أخلاقها وسعة معارفها وشدة عزمها حصونا
تتساقط دونها مكايد عدوها خاسئة « وعد الله الذين آمنوا
وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين
من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم
من بعد خوفهم أمنا »



فهرس

صفحة

